هي.. هكذا

كيف نفهم

الأشياء من حولنا

بقلم
أ.د عبد الكريم بكار

الجزء الأول

1

30

سُنّة إلهية
في
الأنفس والمجتمعات

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة



هي هكذا

الجزء الأول

"كيف نفهم الأشياء من حولنا".

بقلم

أ.د عبد الكريم بكار

عام ١٤٢٩هـ

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م
جمهورية مصر العربية
القاهرة
١٢٠ شارع الأزهر
ص.ب ١٦١ الغورية
هاتف :
٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٢٧٠٤٢٨٠
٢٤٠٥٤٦٤٢ - ٢٥٩٣٢٨٢٠
فاكس :
(+٢٠٢)٢٢٧٤١٧٥٠
الإسكندرية
هاتف :
٥٩٣٢٢٠٥
فاكس :
(+٢٠٣)٥٩٣٢٢٠٤
info@dar-alsalam.com
www.dar-alsalam.com



مؤسسة الإسلام اليوم
إدارة الإنتاج والنشر
المملكة العربية السعودية
الرياض
ص.ب. 28577
الرمز : 11447
هاتف : 012081920
فاكس : 012081902
جدة:
هاتف : 026751133
هاتف : 026751144
بريدة:
هاتف : 063826466
فاكس : 063826053
info@islamtoday.net
www.islamtoday.net

رفاهية الروح
رهن بالتطوع

القوة...
تملأ الفجوة بين الناس والحق

المكان...
يصنع المشاعر

هي...

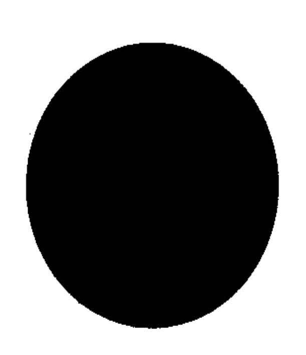
تعارض المبادئ والمصالح
معقد ابتلاء

هكذا

لكل شيء طاقة على التحمل

بطاقة فهرسة : فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشئون الفنية .

بكار ، عبد الكريم .
هي .. هكذا / بقلم عبد الكريم بكار . - ط ١ . - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠٠٩م .
مج١ ؛ ٢٤سم . تدمك ١ - ٦٩٧ ٣٤٢ ٩٧٧
المقالات العربية . أ - العنوان .
٨١٤



تمهيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين... وبعد:

فإن أمة الإسلام تشهد بحمد الله- تعالى- صحوة كبرى على صعيد الوعي بأوضاعها وأحوالها، وهي تشهد أيضاً تقدماً ملحوظاً على طريق فهم الواقع واستشراف المستقبل، وهذا يعود إلى توفيق الله أولاً، ثم إلى هذا التواصل العالمي الذي أتاحه التقدم التقني المذهل على صعيد الاتصال والبث الفضائي؛ وعلينا ألا ننسى الجهود المباركة التي يبذلها المفكرون المسلمون على صعيد إنتاج المفاهيم والرؤى والملاحظات التي يحتاج إليها المسلمون في مسائل فهم الواقع، وتحليله وتوضيح آفاق النهضة المنشودة. لعلي قبل أن أتحدث عن مكونات هذا الكتاب من السنن وطبائع الأشياء أمهد للقارئ الكريم بالملاحظات الآتية:

١- يسألني كثير من الشباب عن الكتب التي يمكن أن يقرؤوها كي يفكروا بطريقة صحيحة، ظانين أن الفكر علم مثل كل العلوم، وأن المفكر مثل العالم الذي قرأ في تخصص من التخصصات عدداً كبيراً من الكتب. والحقيقة مخالفة لهذا الظن، فالعالم بالفقه أو بالتاريخ أو بالكيمياء .... يطلع على ما كتبه السابقون في هذه العلوم وأشباهها، وربما اجتهد في إطار العلم الذي يهتم به، وربما جدّد فيه، وأضاف إليه إضافات جيدة، وهو في كل هذا يمضي في طريق مرسوم واضح الملامح إلى حد بعيد، حيث الأبواب والفصول معروفة مسبقاً لدى المختصين، إذ إن لكل علم موضوعاته وقضاياه الخاصة التي يعالجها العارفون به. أما الفكر فله شأن آخر. عليَّ قبل كل شيء أن أفرِّق بين (التفكير) بوصفه عمليات ذهنية وشعورية وبين (الفكر) بوصفه منهجاً ورؤية وطريقة في فهم الوجود والتعامل مع مظاهره وأحداثه... إن المرء يستطيع أن يجد كتباً في التفكير العلمي والنقدي والموضوعي، وكتباً في عيوب التفكير وأخطائه، كما أنه يجد كتباً تلقي الضوء على (ميكانزما التفكير) وعملياته، وهذه حين تُقرأ بعمق وبطريقة جيدة، فإنها تحسِّن ولا شك سوية التفكير عند قارئها، لكنها لا تصنع بمفردها مفكراً، وهي أيضاً ليست كتباً فكرية بالمعنى الدقيق، ولهذا فإن هناك أعداداً كبيرة من الذين قرؤوا الكثير من الكتب التي تعلِّم التفكير، ولم يجعل ذلك منهم مفكرين؛ **لأن الفكر أكبر من أن يودع في عدد من الكتب، أو يتلقى في عدد من الدروس...**

ليس للفكر موضوع، وليس المفكر متخصصاً في علم من العلوم، أو بعبارة أدق ليس التخصص في علم من العلوم هو الذي يصنع مفكراً، إن الفكر عبارة عن مفاهيم ورؤى ومنهجيات يمتلكها ويبدعها المفكر، ويجعل منها وحدة متماسكة، وهو من خلال تلك

الوحدة يرى العالم، ويفسّر أحداثه، ويكشف التداعيات المنطقية للأشياء، كما أنه من خلالها يطرح الحلول، ويحكم على الطروحات المنافسة والمغايرة. **والعمل الجوهري للمفكر هو صناعة المفاهيم**، ولهذا فإن الفكر عبارة عن مفاهيم تم تجميعها من مجالات مختلفة، أو تم إبداعها بناء على معطيات تنتمي إلى مجالات وملاحظات متنوعة. ولذا فإن علينا ألّا نستغرب إذا رأينا المفكر يجادل في مسائل سياسية واجتماعية واقتصادية وتاريخية وحضارية.... ؛لأن من طبيعة (الفكر) تمكين صاحبه من إعمال منهجيته في معظم -إن لم نقل كل- القضايا التي تطرح أمامه مع الاعتراف بأن ما يقوله، قد يكون صحيحاً وقد يكون غير صحيح. المفكر يشبه في عمله النحلة، التي تطير الأميال الكثيرة، وتقطع المسافات الشاسعة، كي تحط على الكثير من الأزهار والنباتات، وتمتص مالا يحصى من ألوان وأشكال الرحيق، ثم تحيله إلى شراب، فيه شفاء للناس، وذلك الشراب لا يشبه أي شيء مما حطت النحلة عليه، وهكذا طروحات المفكرين يتم التقاط بعضها من العديد من العلوم، لكن لأن المفكر يقوم بتطويرها وتنقيتها وإخصابها فإنك لا تجدها في أي علم من العلوم. هذا التكوين المعرفي بالخصوصية التي أشرنا إليها يمكّن المفكر من أن يبلور رؤية نقدية للمجتمع الذي يعيش فيه، وهذه الرؤية تشكّل الحد الفاصل بين العالم والمفكر، أو بعبارة أخرى: إن الرؤية النقدية للمجتمع وللحياة العامة هي التي ترتقي بالعالم إلى درجة مفكر. ومن هنا ندرك لماذا لا يتوفر في أي مكان من العالم جامعات ومعاهد لإعداد المفكرين، على حين أننا نجد عشرات الألوف من المؤسسات التي تقدم الكثير من التخصصات وفي كل المجالات.

٢- إن الله سبحانه وتعالى رحيم بعباده، ومظاهر رحمته تفوق الحصر، ومنها تلك الخصائص

التي فطر عليها الأشياء، وتلك السنن والنواميس التي أجراها على مخلوقاته، حيث إن الإنسان بسبب تلك الطبائع والنواميس صار يشعر أنه يتعامل مع أشياء ذات مواصفات ثابتة، كما أنه يعرف أن مباشرة الفعل الفلاني تؤدي إلى نتيجة محددة، ويكفي أن نلقي نظرة على المركّبات الكيميائية وعلى العناصر المكونة لها، حيث إن لكل عنصر كيميائي خصائصه الذاتية على مستوى اللون والطعم والريح والوظيفة والأثر الذي يمكن أن ينتج عن تفاعله مع غيره، وقد استطاع الناس من خلال معرفة العناصر الكيميائية ومعرفة السنن والقوانين التي تحكم تفاعلها مع بعضها أن يحصلوا على ما يزيد على مئة ألف من المركبات الكيميائية، وتلك المركّبات ثابتة بسبب ثبات السنن التي تحكمها، ونحن نرى كيف أن في الإمكان أن نحصل على عطر مكون من خمسين عنصراً كيميائياً ثابت الرائحة على مدار نصف قرن أو قرن من الزمان. كيف ستكون الحال لو لم تكن هناك طبائع للأشياء؟ وكيف ستكون الحال لو لم تكن هناك سنن وقوانين نفسية واجتماعية وطبية وفلكية وفيزيائية وحضارية وحياتية عامة؟ إن الوضع باختصار سيعني الشلل التام عن التنبؤ بما يمكن أن يحدث، والعجز التام عن مراكمة المعارف والخبرات والتجارب، وعن توليد معارف موثوقة يمكن الاعتماد عليها، وهذا يعني العجز عن بناء ما تم بناؤه وتشييده من صروح الحضارة في كل زمان ومكان؛ ثم إن وجود السنن بعد هذا هو مظهر من مظاهر عدل الله تعالى في هذا الكون، حيث لا تفرّق السنن بين شخص وآخر، ولا بين أمة وأخرى لأي سبب من الأسباب، فالأعمال الخيرة حلوة الثمرة عظيمة النتائج، والأعمال الشريرة ستكون وبالاً على أصحابها إن عاجلاً وإن آجلاً، ونجد هذا واضحاً في قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ

١- سورة النساء: ١٢٣، ١٢٤.

بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾.[1]

إن (مَنْ) الشرطية تفيد العموم، فترتيب العذاب على فعل السوء، وترتيب دخول الجنة على العمل الصالح شيء عام ومطّرد، وعلى الناس أن يعرفوا أنه ليس هناك استثناء من ذلك لأحد، والرجوع عن الخطأ (التوبة) يقبل إذا توفرت بعض الشروط، وتلك الشروط أيضاً عامة تنطبق على كل الناس. يقول عز وجل: ﴿ٱسۡتِكۡبَارًا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾.[2] الخلق جميعهم عباد الله تعالى وقد أخبرهم بما عليهم أن يقوموا به، وحين يمتثلون لذلك، فإنهم يفوزون بكرامته -تعالى- وحين يحيدون عن سبيله، ويعصون رسله، فإن مصيرهم معروف، وهو الهلاك والبوار، وهذه السنن لا يطرأ عليها أي تغيير أو تبديل، فهي عامة وشاملة لكل الناس في كل زمان ومكان.

٣- تقول العرب: طَبَع الشيء طبعاً: صاغه وصوَّره في صورة ما. ويقال: طبع الله الخلق: أنشأه. والطبع: الخلق. وهو لدى علماء النفس مجموعة مظاهر الشعور والسلوك المكتسبة والموروثة التي تميز فرداً عن آخر. والطبيعة: السجية. والطبيعة مزاج الإنسان المركَّب من الأخلاق. والطبيعة: القوة السارية في الأجسام التي يصل بها الجسم إلى كماله الطبيعي. وطبيعة النار أو الدواء: ما سخّر الله تعالى من مزاجه. وعلم الطبيعة: علم يبحث في طبائع الأشياء[3] من هذه الإضاءات المعجمية يتضح أن طبائع الأشياء هي ذاتها والخصائص المكوِّنة لها والصفات التي تحكم وجودها وعلاقاتها واتجاهات نموها وفنائها، وهي جميعاً فطرية خَلْقية

٢- سورة فاطر: ٤٣.

٣- انظر المعجم الوسيط ٢: ٥٥٠.

غير مكتسبة ولا مصنوعة. إن من طبيعة النار الإحراق، ومن طبيعة الماء السيولةُ والتجمدُ عند درجة الصفر مئوية والتبخرُ عند درجة حرارة مئة. ومن طبيعة الخشب الطفوُ على وجه الماء، والقابلية للاحتراق. ومن طبيعة الحديد التمدد بالحرارة، ومن طبيعة الإنسان أنه يتنفس الهواء ويموت إذا وضع في الماء. أما الأسماك فهي على العكس من ذلك، إنها تحيا في الماء، وتموت إذا ما أخرجت إلى الهواء. إن الإنسان والأشياء وكل المخلوقات لا تستطيع الفكاك من طبائعها التي فطرها الخالق -عز وجل- عليها. وإن كل مخلوق من تلك المخلوقات يُحكم بسنن ربانية، فإذا طرأ على طبائع تلك الأشياء بعض التغيرات نتيجة اتصالها أو اختلاطها بأشياء أخرى، أو نتيجة وضعها في ظروف وحيثيات استثنائية فإنها تخضع لسنن ربانية جديدة، فالماء -مثلاً- إذا مزج ببعض السوائل مثل (الغلّسرين) فإنه لا يتجمد عند درجة الصفر، ولا يتبخر عند المئة[٤]. ولعلنا لاحظنا أن طبائع الشيء وخصائصه حين تتجلى في سياقات وظروف متكررة، فإن تجلياتها تسمى سنة أو قانوناً أو ناموساً. أما في المجال النفسي والاجتماعي والحضاري وكل ما له صلة بالإنسان بوجه من الوجوه فإن سنن الله -تعالى- فيه عبارة عن أحكام علوية ماضية مستمرة اقتضتها مشيئة الله -تعالى- وحكمته البالغة، وذلك مثل تعجيل العقوبة للباغي وعاق والديه، على سبيل المثال.

٤- اكتشاف طبائع الأشياء المادية والسنن التي تحكمها أسهل بكثيرمن اكتشاف الطبيعة البشرية وسنن الله -تعالى- في الأنفس والمجتمعات، كما أن طبيعة العلاقات التي تربط الإنسان بالزمان والمكان والأشياء، تميل إلى الخفاء، كما تميل إليه

٤- انظر ما كتبه د. أحمد كنعان في مقال له بعنوان: الطبيعة... المفهوم والمخالفة وهو منشور على الإنترنت.

السنن والنواميس التي تحكم كل ذلك، والسبب في هذا أن الإنسان يتمتع بالعنصر الروحي والإرادة الحرة، ولهذا فإن العناصر التي تؤثر في حركته وتنظيم ردود أفعاله ووزن كل عنصر ... كل ذلك يصعب فهمه بدقه، ويصعب التنبؤ به على وجه محدد، وانظر مثلاً إلى النجاح في الحياة، فنحن مع أننا نعرف على وجه عام ما يتطلبه تحقيق الأهداف والتفوق على الأقران من شروط ومواصفات وأخلاقيات، إلا أننا في أحيان كثيرة لا نستطيع تفسير الكثير من حالات النجاح الباهر، بل إن أصحابها أنفسهم لا يستطيعون تفسيرها على نحو جيد، ولا نملك إلا أن نقول ﴿ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ .... ﴾. إن الإنسان يتميز عن كل الكائنات الجامدة والحية بالامتدادات والخبرات الثقافية، أي بما يكتسبه من مجتمعه ومن تجاربه وممارساته الخاصة، وهذا المُكتَسب الثقافي حين يضاف إلى قدرة الإنسان على الخروج على خطوط الغريزة لديه وعلى تأخير رغباته وقدرته على الاختيار وتنويع ردود أفعاله على أحداث الحياة- يجعل الحديث عن أي شأن من شؤون الإنسان يستند إلى مبادئ وأسس غير صُلبة، كما يجعل ارتباط المقدمات بالنتائج في الحقل الإنساني غير واضح وغير متين، **ولهذا فإن ما سأذكره من طبائع وسنن والذي سيتركز هنا في الحقل الإنساني والحضاري على نحو عام -هو عبارة عن ملاحظات ومقاربات واجتهادات بعيدة عن اليقين والقطع؛ والتحليل الشخصي فيها ظاهر**، وأرجو من القراء الكرام أن يتعاملوا معها على أنها كذلك، وأنا أجزم بأن القارئ الجيد سوف يكتشف في كلامي بعض الخلل، وسوف يجد بعض الأمثلة التي لا تشملها السنن التي أتحدث عنها، أو هي تحمل شيئاً من المضادة لها، وهذا شيء طبيعي، فنحن جميعاً نعلم أن نتائج البحث والتأمل في الدراسات الاجتماعية ليست مشجعة بالقدر الكافي، والتقدم

فيها بطيء إذا ما قورن بما عليه الحال في مجال العلوم البحتة. وسوف يجد القارئ الكريم أنني أعرضت عن السنن المشهورة والمتداولة والسنن التي هي موضع اتفاق، لأن الفائدة من إيرادها ستكون محدودة بالنسبة إلى معظم القراء. وأود هنا أن أشير إلى شيء يشكل نوعاً من الارتباك لدى كثير من الناس، وهو أن الكاتب إذا ذكر في بحثه أو كتابه شيئاً هو موضع اتفاق أو هو مشهور قلنا: إنه لم يأت بجديد، ولم نستفد مما ذكره شيئاً... وإذا اجتهد وجاء بشيء غير معروف من قبل فإننا ننكر عليه حق الاجتهاد، ونتحفز لالتقاط هفواته والتشنيع عليه.... وهذا من قلّة الإنصاف. إن **الفكرة الجديدة تستحق الاحتفال والابتهاج، ولو أثارت شيئاً من الجدل**، فكم من قول تلقّاه الناس بالتحفظ والتوجس، ثم صاروا إليه، وأثنوا على قائله، وكم من قول رحبوا به في أول الأمر ثم أعرضوا عنه. وقد كان (هرقليطس) أحد فلاسفة اليونان قبل سقراط، يقول: (**إنه لو خُيِّرَ بين فكرة جديدة يقع عليها، وبين التربع على عرش فارس لاختار الفكرة الجديدة**)[٥]. إن الفكرة الجديدة هي الفكرة التي تملّكنا رؤية، أو تلفت أنظارنا إلى شيء غريب، لكننا لا نراه، أو تستطيع إثارة النقاش إذ تلقي حجراً في المياه الراكدة، وأنا أرجو من الله -تعالى- أن يشتمل هذا الكتاب على عدد جيد من الأفكار التي تقوم بهذه الأدوار.

٥- نحن نرمي من وراء الحديث عن (طبائع الأشياء وعن السنن الربانية) إلى أن نبني العقلية المنهجية التي تحوّل المعلومات والمعطيات والظواهر والإشارات المشتّتة والمبعثرة إلى أصول ونماذج عبر التحليل المنطقي وإلى إدراك الروابط الدقيقة التي تربط بينها. إن العقلية المنهجية التي نحاول بناءها يمكن لها أن تستخرج من الوقائع اليومية ما هو

٥- انظر حصاد السنين: ٢٣.

مضمر فيها من دلالات ورمزيات من أجل إضاءة الطريق للتعامل معها بوعي ورشد، من أجل نشر وعي الناس بها أيضاً، وعلى سبيل المثال فإننا حين نقول: (**إن عقولنا لا تدرك الحقائق دفعة واحدة، وإنما على سبيل التدرج**) فإننا نكون قد استخرجنا هذه المقولة من آلاف المشاهدات في شتى المجالات، حيث نرى النقد، ونرى التطوير للنظريات والأفكار والنظم والآلات وكل المصنوعات. إننا حين ننقد شيئاً فإننا ننبه الأذهان كي ترى شيئاً لم تره من قبل، وكي تستدرك على رؤية غير مكتملة. والناس حين يطوِّرون شيئاً فإنهم لا يستطيعون قبل البدء في تطويره أن يتصوروا الصورة النهائية له، والتي تعبر عن إدراك شامل وتام، ولهذا فإنهم يُدخلون تحسينات محددة على النظام أو المنتَج، ثم يجدون بعد مدة أن المنتَج الذي طوروه قد صار متخلفاً بسبب المعرفة العلمية والتقنية الجديدة التي صارت في حوزتهم وبسبب الإمكانات الجديدة التي انفتح وعيهم عليها بسبب النقد والتطوير السابقين، وهكذا يشرعون في إدخال تحسينات أخرى، وهم يعرفون أن الأيام سوف تكشف لهم عن صورة أكمل وأجمل، وليس عليهم سوى البحث والتحلي بفضيلة الصبر والانتظار. إن المقولة التي ذكرناها قبل تساعدنا على تطوير مواقفنا الذهنية والمنهجية حين تدفعنا في اتجاه النظر إلى فتوحاتنا العلمية على أنها حلقة في سلسلة، وأنها إذا كانت اليوم شيئاً رائداً وعظيماً، فستصبح في يوم من الأيام شيئاً قديماً، ولهذا فإن علينا ألا نصاب بداء الغرور أولاً، وألا نتشبث بها ثانياً، وأن نرحب بالنقد الموجَّه إليها ثالثاً، وأن نعمل على تجاوزها رابعاً. وبهذا نكون قد استفدنا من المقولة المنهجية التي استخرجناها من آلاف الظواهر في تعزيز البنية العقلية لدينا وفي تحسين مستوى الوعي بتصرفاتنا ومنجزاتنا، وهذه المقولات المنهجية عبارة عن مناجم تمدنا بجواهر لا تقَدَّر بثمن، وقد صدق من قال: (**إن من يملك معلومة كمن يملك قطعة ذهبية، أما من يملك رؤية منهجية، فهو كمن يملك مفتاح**

منجم للذهب). ويمكنني أن أقول هنا: إن العقول المجدبة هي العقول المشحونة بالأقوال والأفكار والمعلومات المتناثرة والمتضاربة، فهي أشبه بأدوية نفيسة وضعت في صيدلية دون أن تصنَّف، ودون أن يكتب عليها إرشادات الاستعمال ودون أن يعرف الذي سيبيعها لمن سيبيعها، ودون أن يعرف المشتري كيف سيستفيد منها! أما العقول الثرية فعلاً فهي التي تملك المقولات المرتبطة بالسنن وطبائع الأشياء، كما تملك الملاحظات الذكية على الظواهر العامة، لأن هذه وتلك تمثل مفاتيح للفهم والاستبصار.

٦- يمكن لأي إنسان أن يطّلع على الكثير من طبائع الأشياء وسنن الله -تعالى- التي بثها في هذا الكون بشرط واحد هو أن يبحث عنها بالمنهجية الصحيحة موفراً أدوات البحث وشروطه. وهذا الكشف عن السنن.... ليس مرتبطاً بزمان أو مكان أو عرق أو ملة. فربُّ الأولين هو ربُّ الآخرين، وهو ربُّ المسلمين وغير المسلمين، وهو بعدله ورحمته لا يضيع الأعمال والجهود المبذولة في أي مجال من المجالات، وهذا واضح في قوله -تعالى-: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾[٦] وهذا وضح للعيان، فالأمم التي بنت الجامعات الممتازة ومراكز البحوث والدراسات المتقدمة هي الأمم التي تكشف اليوم عن طبائع الأشياء وسنن الله -تعالى- في الخلق، وهي التي تنتج النظريات وتطور النظم والأشياء ... أما الأمم التي لا تبحث ولا تختبر، فإنها تستهلك ما ينتجه الآخرون، ويؤسفني أن تكون معظم البلدان الإسلامية من هذا الصنف!.

٦- سورة الإسراء: ١٨،١٩،٢٠.

٧- هناك سؤال يطرح نفسه بإلحاح، هو: كيف نتعرف على طبائع الأشياء، وكيف نتعرف على السنن التي تحكمها؟ وما وسائل ذلك؟ هذا في الحقيقة سؤال مهم لأن لدى معظم الناس تشوقاً لأن يكون لديهم مساهمة في هذا. ولعلي في إطار الجواب على هذا السؤال أشير إلى الآتي:

أ- في كل علم من العلوم وفن من الفنون وفي كل مجال من المجالات ... سنن لله -عز وجل-، كما أن لكل مخلوق من مخلوقات الله -تعالى- طبيعته التي فطره عليها، وهذا يعني أن في إمكاننا أن نطلع على الكثير من هذه وتلك عبر القراءة الجادة في المؤلفات التي تبحث في المجال أو العلم الذي نود معرفة طبيعته والسنن التي تحكمه، فإذا أردنا -مثلاً- أن نفهم طبيعة المجال التجاري أو الصناعي فلنقرأ للكتّاب المبدعين في هذين المجالين، فالكُتّاب الجيدون يشيرون في أثناء كتبهم ومعالجاتهم إلى وجوه تطور العلم أو المجالات والآفاق التي تنتظره، كما أنهم يشيرون إلى ممانعاته ومشكلاته وطبيعة العقبات والمشكلات التي فيه ...، وهذا كله يفيدنا فائدة عظمى فيما نحن بصدده.

ب- بالنسبة إلى فهم طبيعة الإنسان والسنن التي تحكمه فإن من المفيد جداً أن نعمق النظر في كتاب الله -تعالى- حيث ذكر - سبحانه- الكثير مما يتعلق بميول الإنسان وغرائزه وتطلعاته واتجاهاته الكبرى، ونجد شيئاً من ذلك في السنة النبوية، وانظر معي إلى النصوص الكريمة الآتية:

قال الله -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾[7]

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾[8]

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾﴾[9]

٧- سورة إبراهيم: ٣٤.

٨- سورة فصلت: ٤٩.

٩- سورة العلق: ٦،٧.

وقال - صلى الله عليه وسلم-:

(لو كان لابن آدم وادٍ من مال لابتغى إليه ثانياً...)[10]

(إنما الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة)[11]

جـ- التأمل الشخصي مهم في فهم طبائع الأشياء وسنن الله -تعالى- في الخلق، حيث إن من لديه حظ حسن من المعرفة، وعنده شيء من الخبرة والتجربة في الحياة يستطيع أن يستخلص الكثير من المقولات والمفاهيم والإرشادات التي تدل على الكثير من النظم والقوانين التي تحكم حياتنا العامة والخاصة، والكثير من الخصائص التي تشكِّل ذاتية الكثير من الأشياء، وتمنحها هُويتها الشخصية. وفي إمكان المرء حين يتوصل إلى شيء من ذلك أن يستشير أهل المعرفة والاختصاص، ويعرض عليهم ما توصل إليه حتى يتأكد من صحة استنتاجاته وملاحظاته.

د- علينا أن ندرب أنفسنا على التقاط الإرشارات الذكية التي يطلقها بعض المفكرين والعلماء، ثم نقوم بالتأمل والبحث والحوار من أجل إثرائها بالتطبيقات، فإذا قال أحد المفكرين -مثلاً- إن الصداقة مثل حديد التسليح، لها طاقة محدودة على التحمل، وإذا حمّلناها فوق طاقتها - كالإكثار من طلب الخدمة من الأصدقاء أو كثرة معاتبتهم -فإننا نخسرها كما نخسر حديد التسليح إذا حمّلناه فوق طاقته وذلك حين يلتوي ويفقد وظيفته- فإننا نحاول إيجاد تطبيقات لذلك، كأن نقول: إن القرابة والتربية والسياسة والضمير والمروءة .... لها طاقة محدودة على التحمل، وإذا طلبنا منها أكثر مما تحتمل فإنها تكفُّ عن أداء دورها، وقد ينهار وجودها، ونكون فعلاً قد خسرناها، وهكذا .....فإذا كثرت لدينا

١٠- رواه البخاري وغيره.

١١- رواه مسلم وغيره.

التطبيقات كثرة غامرة، أمكننا أن نقول: كل شيء إذا حمّلته فوق طاقته، فإنه ينهار، أو فإنك تخسره، وبذلك نكون قد حصلنا على قانون عام نستفيد منه فائدة كبرى في إدارة شؤوننا، وسنظل نعتقد أنه سنة من سنن الله -تعالى- في الخلق إلى أن يثبت ما يشكل استثناءات كثيرة منه، فإننا نقوم حينئذ بتعديله ليكون ذا دلالة غالبة، كأن نقول: كثير من الأشياء إذا حمّلته فوق طاقته فإنك تخسره.

●●●●

1

الإنسان...
حب غير محدود للمال

1 الإنسان...
حب غير محدود للمال

منذ أن يفتح الإنسان عينيه على الحياة، ويبدأ بفهم محيطه العام يتفتح وعيه على بعض الحقائق المهمة، منها أنه لا يستطيع الحصول على كل شيء، فهناك دائماً حدود لما يمكن أن يستحوذ عليه، ومنها أنه يحتاج إلى الكثير الكثير من الأشياء، ومنها أيضاً أن عليه في أحيان كثيرة أن يدفع ثمناً لما يرغب في اقتنائه والاستمتاع به من أشياء وخدمات. وهذا كله يدفع به دفعاً نحو تعزيز ميوله الفطرية إلى التملك على نحو عام وإلى امتلاك (المال) الذي يعد الأداة الأساسية للحصول على المرغوبات والمشتهيات على نحو خاص. **إن شدة ميل الإنسان إلى (المال) تجعله يتجاوز شعوره بالحاجة إلى المال، ويتجاوز تفكيره في**

كيفية إنفاقه، أي يصبح المال والحصول عليه هدفاً في حدِّ ذاته بقطع النظر عن وظائفه، تماماً مثل الذي يتناول كميات كبيرة من الطعام، فهو لا يفكر في القيمة الغذائية لها - بل كثيراً ما تكون ضارة - وإنما يأكل استجابة لشهوته للطعام ليس أكثر.
يقول الله تعالى موضحاً بأبلغ بيان هذا الجزء من الطبيعة البشرية: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾[١٢] ويقول -سبحانه- ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾[١٣] وقال: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ۝٤٩﴾[١٤] أي لا يمل العبد من سؤال الله خيرَ الدنيا بسبب حبه للحياة وحرصه على تكديس الأشياء، وإذا أصابته ضراء قنط من رحمة ربه، واستبطأ الفَرَجَ.

وقال - صلى الله عليه وسلم - **(لو كان لابن آدم واد من مال لا بتغى إليه ثانياً، ولو كان له واديان لابتغى لهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب)**[١٥] وعند أحمد عن جابر: **(لو كان لابن آدم وادٍ من نخل لتمنى مثله، ثم تمنى مثله، حتى يتمنى أودية، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب)** وتماشياً مع هذه الحقيقة المتوهجة قال - صلى الله عليه وسلم - **(ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس)**[١٦] أي أن الإنسان لن يشعر بالغنى بسبب كثرة الأشياء التي يمتلكها؛ لأنه لا حدود لشهوته للتملك، وإنما يشعر المرء بالاستغناء بما يمتلك من عفة وقناعة وترويض للنفس على الانصراف عن متاع الدنيا. إن الناس يعرفون

١٢- سورة العاديات: ٦- ٨ ومعنى الآية الأخيرة: أن الإنسان بسبب حبه للمال لقوي مجدٌ في تحصيله، متهالك عليه.

١٣- سورة الفجر: ٢٠.

١٤- سورة فصلت: ٤٩.

١٥- رواه البخاري وغيره.

١٦- رواه مسلم.

أنه ليس من اللائق أن يظهر الإنسان بمظهر الجشع الحريص على المال، ولهذا فإنهم يغلّفون أنشطتهم ومساعيهم للحصول على المال بأغلفة، فيها تمويه وتلطيف، وهم في الخفاء يبذلون جهودهم لنيل ما يستحقون، وما لا يستحقون، وبطرق مشروعة وغير مشروعة، كلٌ بحسب دينه وخلقه، وقد أعجبني ما ذكره أبو الوفاء ابن عقيل حين قال: (**من ادعى أنه لا يحب الدنيا، فهو عندي كذاب، إلى أن يثبت صدقه، فإذا ثبت صدقه ثبت جنونه**)! ولا شك بعد هذا أن هناك نوعاً من التفاوت الجبلّي في تعلق الناس بالمال، كما أن لتهذيب النفس وشغلها ببعض الأمور العظيمة والنبيلة أثراً في تخفيف الحرص على تكديس المال.

● هل يعني هذا الملمح من ملامح الطبيعة البشرية شيئاً؟

إنه يعني الآتي:

١- نحن مبتلون بحبنا للمال وميلنا الشديد إليه كما قال الله -سبحانه-: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾﴾[١٧]، فهذا الحب الجارف للمال أداة امتحان، وعلينا أن نحاول النجاح في ذلك الامتحان من خلال كسب المال من حلال ومن خلال إنفاقه في مراضي الله؛ تعالى.

٢- ما دامت النفس لن تشبع من المال، فإن علينا إذاً أن نتخذ منه الموقف المتزن، فلا ننشغل بكسبه وتنميته وتوفيره عن أداء الحقوق والواجبات المترتبة علينا لربنا وأهلينا وأجسامنا ... وعلينا أن نحمي أنفسنا من داء التسويف: إذا صار معي مائة ألف حججت، وإذا صار لدي مليون بنيت مسجداً .... وتتوفر مع المرء هذه المبالغ،

١٧- سورة الأنفال: ٢٨.

وأكثر منها ثم لا يحج، ولا يبني مسجداً ولا يصل رحماً، ولا يكفل يتيماً، وهذا بحق من أمارات الحرمان و الخذلان!.

٣- **إن المعروض من المال سيظل أقل من المطلوب، ولهذا فإن التسابق على الاستحواذ على أكبر قدر من المال سيظل مصدراً مستمراً للتوتر والنزاع**، وهناك دراسات تدل على أنه كلما انخفض المستوى التعليمي لدى الشخص فإن إقباله على الاستهلاك يصبح أشد، وربما كان ذلك من باب التعويض عن الجدب الروحي والفكري الذي يعاني منه، وهذا يعني أن الإعراض عن التثقف والقراءة والذي يشكل سمة بارزة لمعظم المجتمعات العربية والإسلامية، سيزيد في التوتر، من خلال ازدياد الطلب على المال، وسيكون ذلك من ضرائب التخلف!

٤- لدى الناس طموح كبير لتحقيق الذات وإثباتها والظهور بمظهر الشخص القائد أو الزعيم أو المتميز أو فاعل الخير، وهذا يمكن تحقيقه عن طريق الأنشطة الدعوية والأدبية والتطوعية والاجتماعية، فإذا كانت هذه الأنشطة ضئيلة في مجتمع من المجتمعات أو عليها نوع من الحظر والتضييق لأي سبب من الأسباب، فإن الناس سوف يلجؤون إلى المال بوصفه وسيلة لتحقيق الذات، وهنا تنتشر المظهرية، ويَخْبَر الناس ألواناً مقيتة من المباهاة والإسراف والتبذير والسفه في إنفاق المال، ولهذا فلابدَّ من العمل الحثيث على إغناء الحياة العامة بالمؤسسات والمشروعات والأنشطة الأدبية والاجتماعية ... وإلا فقدنا توازننا في إنفاق المال،والذي سيؤدي في النهاية إلى خلل في طريقة اكتسابه.



هي...
هكذا

2

تعارض المبادئ والمصالح معقد ابتلاء



2 تعارض المبادئ والمصالح معقد ابتلاء

هذه الدنيا دار ابتلاء، فنحن مبتلون في كل وضع من أوضاعنا، وفي كل حركة من حركاتنا، والنجاح في الابتلاء يكون بالامتثال لما يريده الله -تعالى- والكفّ عما نهى عنه. الإنسان بما هو جسد له متطلبات، والإنسان بما هو نفس وروح يسعى إلى التميز والتأثير والنفوذ.. له مصالح معقدة ودائمة، وهو مستعد للمقاتلة من أجل تحقيق تلك المصالح، وهناك قدر كبير من تلك المصالح مصون شرعاً وعرفاً، وقد قال -صلى الله عليه وسلم-: (**من قُتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد**)[18] وقد قال عبد الله بن المبارك: (**يقاتل عن**

١٨- رواه أبو داود والترمذي.

ماله، ولو كان درهمين)[١٩] لكن تلك المصالح ليس لها أي حدود، فتطلع الإنسان إلى المال والصحة والتعمير في الأرض والشهرة والنفوذ والتملك والهيمنة.... مفتوح دائماً ومهما بلغ المرء من كل ذلك، فإنه سيظل يتطلع إلى المزيد، وسيجد أيضاً من أوتي أكثر مما أوتي، وأكثر مما يتطلع إليه. والإنسان إلى جانب هذا يملك قيماً ومبادئ تشكل بالنسبة إليه مصدر التسامي والتأنق الروحي، والذي ثبت أن كل واحد من الناس يجد في نفسه درجة من النزوع إلى الالتزام بمعتقداته ومبادئه وقيمه، وهذا هو الذي يُبقي على الحد الأدنى من إنسانية الإنسان، ويوفر قاعدة أخلاقية -ولو محدودة- لتعامل الناس بعضهم مع بعض. ومن الواضح إلى جانب هذا وذاك **أن الناس -كل الناس- يبذلون جهداً مقدراً في سبيل تحقيق مصالحهم ونيل مرغوباتهم في إطار مبادئهم وأخلاقهم،** وذلك لأن الناس يشعرون بنوع من وخز الضمير حين يرتكبون جرائم لا مسوغ لها ولا حاجة إليها، ويمكن أن نستثني طبعاً المرضى النفسيين، وبعضاً من عتاة المجرمين.

● أين معقد الابتلاء إذن؟

معقد الابتلاء أو بؤرة الاختبار تكمن في سعي الناس إلى تحقيق مصالحهم إلى الحد الأقصى دون أن يجرحوا صفاء معتقداتهم، أو يشعروا أنهم يدمرون المعاني السامية في نفوسهم. ويمكن القول: **إن النجاح الكامل في هذا الاختبار غير ممكن،** فإذا كان الواحد منا يريد -مثلاً- تملكاً للمال من غير حدود، أو أراد أن يصبح واحداً من أغنى أغنياء العالم خلال عشرين سنة، فهذا يعني أن عليه أن يخفف من القيود الشرعية المفروضة على اكتساب المال، مثل الامتناع عن أكل الربا وعن الرشوة والمماطلة في دفع حقوق الناس والابتعاد عن الغش والخداع والكذب، كما أن عليه أن يكنز المال ويقتّر في إنفاقه إلى أقصى حد

١٩- انظر جامع الترمذي: ٣٣٣.

ممكن، وهذا كله يشكل خروجاً صارخاً على المبادئ والقيم الشرعية والإنسانية.

وإذا تأملت في الشأن العام لأصحاب الثروات الكبيرة وجدت أن أكثرهم ضعيف الحساسية تجاه المحرمات والشبه التي تكتنف مسألة جمع المال وتعظيم الثروة، وإن من واجب الحكومات أن تعمل بجد على توفير بيئة يكون فيها جمع المال من طرق غير مشروعة أمراً في غاية الصعوبة، حتى تساعد الناس على البقاء في إطار مبادئهم وهم يسعون إلى تحقيق مصالحهم.

الخلاصة: أن من أراد أن يجمع بين بلوغ الحد الأقصى لمصالحه مع الوفاء الكامل لمبادئه وقيمه، فإنه واهم لأنه يحاول الجمع بين ضدين. وقد قال -صلى الله عليه وسلم- (**اللهم إني أعوذ بك من نفس لا تشبع...**)[٢٠]

●هل يعني هذا شيئاً؟

إنه يعني الآتي:

١- لابد للواحد منا في لحظة ما أن يضحي ببعض مصالحه، أو يتخلى عن بعض مبادئه وأخلاقه، فليدرِّب نفسه على التشبث بمبادئه والتخلي عن أي مصلحة لا يمكن أن يحققها عن طريق مشروع.

٢- علينا أن نتذكر دائماً أن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه.

٣- للنضال من أجل البقاء على الطريق الصحيح لذة روحية أعظم بكثير من اللذة التي نجدها عند الظفر بواحد من مرغوباتنا.

●●●●

٢٠- حديث صحيح أخرجه الترمذي وغيره.

3

الإنسان كائن مستهلك

3 الإنسان... كائن مستهلك

نستطيع

القول: إن (الاستهلاك) شيء أصيل في الطبيعة البشرية، ودليل أصالته أنه موجود لدى كل البشر مهما كانت دياناتهم وأعراقهم وثقافاتهم، ومهما كانت التربية التي تعرضوا لها. نحن نعرف أن الإنسان يستهلك الطعام، ويستهلك الماء والأثاث واللباس ... وأشياء كثيرة مما هو من قبيل الملموس والمحسوس، لكن الذي لا يعرفه كثيرون هو أن الإنسان يستهلك إلى جانب ذلك الأفكارَ والأساليبَ والنظمَ والنكتَ والأشكالَ والكلماتَ... واستهلاكه لهذه الأشياء يختلف عن استهلاكه للأشياء المادية، والذي يتجلى في تحويلها إلى أشياء لا ينتفع بها أو أشياء أقل قيمة، إن استهلاكه للأفكار -مثلاً-

لا يقلل من شأنها، ولا يدل على أنها خاطئة، ولا على أن زمانها قد انتهى، إنه لا يدل على شيء من ذلك، لكنه يدل على تشبعه بها كما يتشبع الإسفنج بالماء، وكما يتشبع التراب بالماء، فيتحول إلى طين. إن الإنسان حين يستهلك أسلوباً أو فكرة أو تشبيهاً يصبح في نظره شيئاً أشبه بالمبتذل، فلا يستجيب لإثارته، ولا يحرك كوامنه، ولا يضيف شيئاً إلى تراكم وعيه وخبراته. وهذه بعض تجليات هذا الطبع:

١- حين نقوم بحركة مضحكة أمام طفل يبلغ من العمر سنة، فإنه يضحك ملء فمه وبطريقة رائعة ومثيرة، فإذا كررنا تلك الحركة مرتين أو ثلاثاً تراجع تجاوبه معها، وصارت ضحكته أقصر وأهدأ، ثم لا يلبث الصغير أن يدير وجهه تعبيراً عن التشبع وربما السأم، وكأنَّ لسان حاله يقول: (هات غيرها)!.

٢- حين أقوم بتسجيل حلقة تلفازية أو إذاعية، فإنني أشعر في داخلي بشيء من الزهو بسبب ما أظن أنه حديث مفيد وممتع، لكن لا ألاحظ شيئاً من ذلك على وجه المُخرِج أو الذي يقوم بالتسجيل أو التصوير، وذلك ليس لأن هؤلاء لا يعرفون قيمة الكلام الجيد، ولكن لأنهم يسمعون نحواً مما أقوله كل يوم مرات ومرات، بل صار ما يسمعونه مرتبطاً بضغوط الوظيفة وأعبائها، أي صار شيئاً لا يبعث على السرور!.

٣- كثير من الوعاظ والمتحدثين وأهل الخير والغيرة يكررون على مسامع الناس عبارات عظيمة، مثل: (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها) و (الإسلام هو الحل) و (علينا أن نعود إلى الله -تعالى-) و(من غير العودة المنشودة سنزداد تخلفاً) و (الناس فيهم خير، ولكن المشكلة في القيادة) و (علينا أن نقف من الغرب موقف المتعلم لا موقف التاجر الذي لا يعرف إلا الاستيراد) .... وعبارات كثيرة جداً من هذا النوع، وهذا الكلام كله -بشكل عام- صحيح لكن الناس مرَّ عليهم قرون

عديدة، وهم يسمعون هذه العبارات وغيرها، ولم يشعروا أنها أفادتهم في التخلص من الانحرافات والمشكلات التي عانوا منها طويلاً، ولهذا فإنهم لم يعودوا يعلّقون عليها أي أمل، ولم تعد تثير حماستهم للعمل، وصاروا يتطلعون إلى الكيفية التي تتمكن بها قيم الإسلام ونظمه من تحضير الأمة والارتقاء بها، **أي إن تكرار تلك العبارات أوجد نوعاً من التشبع بها والذي يولِّد العزوف عن التفاعل معها في نهاية المطاف.**

٤- الاستهلاك أو التشبع هو السبب المباشر لزهد أسر العلماء والمصلحين والدعاة بهم، فهم يسمعون كل ما يقوله هؤلاء وعلى نحو مكرر وبشكل يومي أحياناً، فلا يحسون أنهم يسمعون جديداً، أو شيئاً مثيراً. ويحدث مثل هذا مع أهل الحي الذين يصلون الجمعة مع خطيبهم الثابت، حيث إنهم يحفظون أسلوبه في الطرح، ويعرفون نوعية مقولاته، ويقومون بتصنيفه بحسب إدراكهم ووعيهم، وهذا يجعلهم يتوقعون الكثير مما سيقوله، ولهذا فإنهم يفسرونه على مقتضى خبرتهم، وإن لم يستوعبوه بشكل جيد، ومن القصص الواقعية في هذا الشأن ما يُذكر من أن رجلاً صلى الجمعة في مسجد، وصلى ولده الكبير الجمعة في مسجد آخر، فسأل الولد أباه: عن أي شيء تحدث خطيبكم اليوم؟ فقال الأب: لم أستطع استيعاب ما قاله بشكل حسن، لكن فهمت منه أننا جماعة غير جيدين!.

هل لهذا استثناء؟ طبعاً، ولكن الاستثناء لا يهدم القاعدة، وإنما يؤكدها.

● هل يعني هذا شيئاً؟

إنه يعني الآتي.

١- إن التشبع بالأشياء المعادة والمكرورة والسأم منها من مظاهر رحمة الله -تعالى-

بالإنسان لأن ذلك يشكل مهمازاً خفياً على التجديد والتطوير.

٢-علينا أن ننظر إلى الأفكار والأساليب والنظم السائدة على أنها أشبه بدرجات السلم، فنحن نرتقي عليها ونصعد نحو الأعلى، أي نستفيد منها، لكننا لا نحملها معنا إلى السطح، إننا نتركها في مكانها، ونصبح أعلى منها، وهكذا ما هو سائد اليوم من أفكار ... مهمته أن يدفعنا إلى الأمام، ولكنه وهو يدفعنا يستنفد طاقته الذاتية، أي يدفعنا خطوات محدودة، وعلينا أن نبحث عن شيء جديد من كل ذلك حتى نحصل على اندفاعات وانطلاقات متجددة. إذا تمسكنا بالنظم والأفكار والأساليب أو منحناها نوعاً من القداسة، وعكفنا على تكرارها وتمجيدها، فإننا لن نحصل على غير السأم والجمود، وهذا ما يتنافى مع طبيعة التدين الحق.

٣-استهلاك الناس للأفكار... يشكل مأزقاً حقيقياً لكل أولئك الذين يستهدفون التأثير في غيرهم سواء أكانوا مفكرين أو دعاة أو سياسيين أو معلمين أو مربين أو مندوبي مبيعات .... إن عليهم دائماً أن يقدموا شيئاً يتجاوز خبرات الناس ومألوفاتهم، وهذا يتطلب منهم درجة عالية من الدأب على التعلم والبحث والإبداع والتطوير، وإلا انصرف عنهم الناس، أو تجاوزوهم، وخلَّفوهم وراءهم، وإن عدم إدراك هذه الحقيقة على نحو حسن أدى إلى قطع حبال التواصل بين الكثيرين من صنَّاع الرأي وبين الجماهير العريضة، **حتى إنه يُخيَّل للمرء أحياناً أن بعض المتحدثين يتحدثون على موجة، وبعض مخاطبيهم يلتقطون موجات أخرى!.**



4

القوة...
تملأ الفجوة بين الناس والحق



4 القوة... تملأ الفجوة بين الناس والحق

قد فطر الله -تعالى- الناس على حب الحق وحب الخير، ولهذا فإنه لا أحد يمكن أن يفتخر بأنه على الباطل، أو بأنه يكره الحق، فالحق شيء عظيم، ومن عظمته أنك ترى أعداءه والمعرضين عنه يتمسحون به، ويحاولون إقناع أنفسهم بأنهم على طرف منه، أو يحاولون إيجاد المسوغات التي تلطف من خروجهم عليه، فإذا جئنا إلى الصعيد العملي وجدنا أن شهوات الناس ورغباتهم غير المشروعة تلح عليهم إلحاحاً شديداً فيستجيبون لها، فإذا بهم قد تنكبوا جادة الحق، وصاروا من أهل الباطل. ولعلي ألقي بعض الأضواء على هذه القضية المهمة:

١- حين نكون على يقين بأننا محقون، فإننا نجهر بذلك، ونحاول الوصول إلى حقوقنا عن طريق القضاء أو التحكيم أو الصلح أو التفاوض، لأننا نملك الثقة بالفوز وبمؤازرة الناس لنا. إن المبطل يخشى مقابلة الذين ظلمهم، ووضع عينه في عيونهم ما لم يكن على درجة عالية من الوقاحة، ولهذا فإنه يلجأ إلى الهروب من المواجهة والمفاتحة، ويلجأ إلى استخدام القوة، وهي أشكال وأنواع...

٢- كلما اتسعت الفجوة أو الهوة بين الإنسان والحق فإنه في الغالب لا يقف الموقف الصادق الذي يراجع فيه نفسه، ويقوِّم اعوجاجه، وإنما يلجأ إلى استخدام القوة التي تتلاءم مع تلك الفجوة، أي يستخدم القوة المفرطة، ويقدم فرعون النموذج التاريخي لاستخدام القوة الغاشمة، لأن ادعاءه الربوبية ورغبته الجامحة في استعباد الناس جعل المسافة التي تفصل بينه وبين (الحق) مساحة شاسعة. موسى وأخوه هارون - عليهما السلام- كانا موقنين أنهما على الحق ولهذا فإنهما عرضا على فرعون البرهان تلو البرهان والحجة تلو الحجة على صدقهما ونصحهما، لكن فرعون الذي كان يجمع بين الحمق والجهل والكبر، كان دائماً يرد عليهما بالتهديد والوعيد ومحاولة البطش، لأن هذا ما يحسنه المبطلون.

٣- حتى يستطيع المبطل استخدام القوة في ملء الفجوة التي تفصل بينه وبين الحق فإنه يحتاج إلى الغموض، كما يفعل من يحب الصيد في الماء العكر، وهذا ما نلاحظه في موقف اليهود في فلسطين، وموقف العالم الغربي برمته من مسألة حقوق الفلسطينيين، ومن مسألة تعريف (الإرهاب) لأن الوضوح سيعني انكشاف الباطل، كما سيعني نوعاً من اللجوء إلى المنطق والشرعية، وهذا ما لا يريده القوم! إن غموض المصطلحات والمفاهيم يُستغَل اليوم في محاصرة أهل الخير عن طريق استخدام القوة

المقّنة وغير المقّنة؛ حيث صار من السهل أن يُطَلق على فلان من الناس بأنه أصولي أو ظلامي أو متطرف أو متخلف ..... وحين تطلب ممن يقول ذلك توضيحَ كلامه فإنك تجد أنه لا يملك القدرة على شرح ما يقوله، وإنما يستغل غموض المصطلحات، أو تجد أنه يتهم الإسلام نفسه بالرجعية والتخلف، وليس بعض أتباعه.

٤- حين تتوفر القوة الضاربة عند أي جهة، فإنها تغريها بتجاوز الحق المشروع، فالقوة في حقيقة الأمر تعمي أصحابها، وتُلغي عقولهم، فيتصرفون كمن لا يملك خلقاً ولا ديناً ولا تجربة ولا رؤية، وهذا ما يمكن أن نسميه (خيانة القوة). إن أمريكا هي أقوى دولة في العالم، وهي أكثر دول العالم خرقاً للشرعية الدولية، وأقل دولة مبالاة بمستقبل العالم على مستوى البيئة والموارد، ولذلك فإن أمريكا في حاجة إلى من يحميها من قوة أمريكا وجبروتها، وهيهات هيهات أن نجد من يستطيع ذلك! **لهذا فكلما زاد تفكير المرء في حل مشكلاته عن طريق القوة فإن عليه أن يخشى على نفسه من أن يكون في عداد الظلمة والجبارين.**

● هل يعني هذا شيئاً؟

إنه يعني الآتي:

١- إذا أردنا لمجتمعاتنا أن تعيش في ظلال العدل والحق، فإن علينا أن نراقب بعيني صقر مشروعية تَشَكُّل القوى، وكيفية استخدامها، وهذا من مهمات الحكومات أولاً، ومن مهمات القوى الاجتماعية الخيِّرة ثانياً.

٢- نزاهة القضاء وشفافيته وحزمه من أهم ما يُشيع الحق، ويحميه من خلال حفظ الحقوق وإنصاف المظلومين، ومنع البغي والتسلط.

جـ-نحن في حاجة إلى تعميم (الثقافة الحقوقية) حيث إن الناس إذا عرفوا على نحو جيد ما لهم وما عليهم، فإنهم يعرفون كيف يدافعون عن حقوقهم، ويعرفون كيف يقطعون الطريق على استخدام القوة في اغتصاب تلك الحقوق.

د- لا شك أن على الدعاة والمربين تعزيز الوازع الداخلي لدى الناس حتى يتقوا الله، ولا يستخدموا الإمكانات التي زودهم بها في ظلم عباده.

●●●●

5

الإسراف في النقد يعكّر مزاج صاحبه

هيا...
هكذا



5 الإسراف في النقد يعكِّر مزاج صاحبه

إنّ المكمن الحقيقي لذات الإنسان هو مشاعره وأحاسيسه، وليس عقله، ومن الواضح أن البنية النفسية للإنسان هشة للغاية، حيث تستخفه كلمة الثناء، وتفتنه النظرة .... كما أن كلمة واحدة قد تقضُّ مضجعه، وتزعجه شهراً أو شهرين، ويمكن لذبابة أو بعوضة أن تحرمه من النوم، وتثير أعصابه، وكما قال سبحانه- في الذباب: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝٧٣﴾[٢١]. ومن صور عدل الله -تعالى- المطلق في هذا الكون أن الإنسان يصعب عليه أن يُدخل السرور على غيره، من دون أن يجد شيئاً منه في نفسه، كما أن من الصعب عليه أيضاً أن يؤذي مشاعر الآخرين دون أن يؤذي نفسه. **إن الكلمات الجميلة**

٢١- سورة الحج:٧٣.

التي نوجهها لبعضنا أشبه بالطيب، حيث إنك لا تستطيع أن ترشه على من حولك دون أن يصيبك منه شيء، والكلمات الجارحة والقاسية أشبه بالريح المنتنة، يستنشقها كل من في المكان. إن النظرات والكلمات المحملة بالعتاب والنقد واللوم تكتسب في الأساس مشروعيتها من تلك المفارقة الأبدية بين النظرية والتطبيق، أو بين ما نقوله وبين ما نفعله، أو بين ما يمكن أو يجب أن نقوم به، وما نقوم به في واقع الأمر. وللنقد وظيفة مهمة في الحياة حيث إنه يوقظ الوعي من سباته، ويساعد الناس على معرفة عيوبهم وعثراتهم، ولذلك فوجود النقّاد أمر حيوي لاستقامة الحياة، لكن مع هذا فإن علينا أن نفرِق بين ممارسة النقد بطريقة جيدة وفي إطار أخلاقي وبين ممارسته على نحو عشوائي أو بطريقة كيدية، أو لأهداف دنيئة!.

هناك شعوب وقبائل وأهالي مدن وأتباع أحزاب .... لديهم ملكات نقدية نامية أكثر مما هو مطلوب أو مقبول، إنهم يرون الأشياء بمنظار أسود، ولا تقع أعينهم إلا على النقائص، وهم يعانون من شيء من المزاجية، أو لديهم قلق غامض ورفض للحياة، إنها السلبية التي تجعل الرفض أقرب متناولاً من أي شيء آخر. هؤلاء المسرفون في النقد يشبهون شرطياً يتلقى شكاوى المواطنين بشكل يومي، أو يشبهون قاضياً جنائياً، تُعرض عليه القضايا الشنيعة التي تحدث في البلد، لكن القاضي يعرف من خلال ثقافته ووعيه أن نسبة صغيرة من المجتمع هي التي ترتكب الجرائم المثيرة والمقززة، أما المسرفون في النقد، فإنهم يلقون في روع من يسمعهم أن البلد خلا من الأخيار، وأن الأوضاع سائرة في طريق البوار والانهيار، وأنا أعرف أشخاصاً كثيرين من هذا الصنف، وأشعر حين أقابل واحداً منهم بالإشفاق عليه، لأنه يصنع أحزان نفسه بنفسه، ويجلب الهموم لقلبه دون مسوغ مقبول، ودون أن يشعر؛ إنهم بارعون

في الاستدراك على كل ما هو جميل ومريح: تذكر أمام أحدهم أن فلاناً بنى مسجداً رائعاً، فيقول لك، ولكن ثروته مشبوهة، أو إنه مراءٍ في عمله! وتذكر أمام آخر بأن فلاناً من الناس ذكي وألمعي، ومتفوق في عمله، فيقول لك: لا فضل له في ذلك، فقد ترك له والده ثروة كبيرة، مكّنته من الدراسة في أفضل الجامعات، وأي واحد يدرس في جامعة مثل (هارفارد) لابد من أن ينجح... وتذكر في مجلس أنك معجب بالطريقة التي أدار بها فلان الأزمة الكبرى التي حلّت بالبلد، فينبري أحد الحضور ليقول لك: هذا ليس بسبب كفاءته وذكائه، وإنما الفضل للمستشارين الأجانب الذين يقدمون له الدراسات والمقترحات... وهكذا فهناك نوع من التشويه لكل الأشياء الجميلة!.

ما الذي يُغري الإنسان بالنقد، ويدفعه للبحث في قمامة الواقع، للعثور على ماهو منفر ومقزز؟ أهو المثالية الزائدة، وتجاهل الظروف الصعبة التي يمر بها كثير من الناس؟ أو هو تزكية النفس والاستخفاف بالتالي بالآخرين؟ أو هو حب الظهور لأن النقد يمنح صاحبه تفوقاً فورياً على النظراء والجلساء، على حين أن التفكير البنائي الإيجابي لا يستطيع تأمين ذلك؟ لا أعرف، لكن قد يكون الدافع عبارة عن مزيج من كلّ ذلك، وقد يكون لأسباب مجهولة.

● هل يعني هذا أي شيء؟

إنه يعني الآتي:

على المرء أن يتقي الله -تعالى- فيما يقول، فنحن محاسَبون على كل كلمة نتلفظ بها، كما قال -عز وجل-: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [٢٢] وعلينا أن نكون

٢٢- سورة ق:١٨.

مستعدين لإثبات صحة نقدنا وبراءته من الأغراض والغايات الرخيصة.

علينا أن نقدر ونحترم الفروق الفردية بين الناس، حيث لا يُشترط لاستقامة الناس وفضلهم وصوابهم أن يوافقونا في كل ما نراه، إذ ليس هناك من هو مركز الدائرة في كل شيء ومن هو محيطها.

بعض النقد هو عبارة عن غيبة خالصة، يهدف إلى التشهير، وليس إلى النصح أو الإصلاح، لأن الذين يقومون بتوجيهه لغيرهم لا يفعلون ذلك إلا في حال غيابه، ولا يملكون الشجاعة لمواجهة من ينتقدونهم، لأنهم ليسوا من أهل النصح ولا التثبت.

أخيراً قد يكون من المفيد أن يفهم هؤلاء الذين لا يعجبهم العجب ولا الصيام في رجب -كما يقولون- أنهم هم المتضرر الأكبر من مبالغتهم في ملاحقة عيوب الناس حيث إن ما ينجزونه فعلاً هو إزعاج أنفسهم وتكدير قلوبهم، وقد لا يكون لهم أي شيء بعد ذلك!.

●●●●

6

الاختيار... ينطوي دائماً على مخاطر الانقسام

6 الاختيار...
ينطوي دائماً على مخاطر الانقسام

إن الإنسان كائن ضعيف، لكن طموحاته غير محدودة، ولهذا فإنه يود لو أنه جمع بين المتناقضات، واستحوذ على محاسن وإيجابيات كل النظم وكل الخيارات، لكن السنن التي بثها الخالق -عز وجل- في الكون لا تطاوعه في ذلك، وعليه عوضاً عن الوقوع في الوهم ومعاندة منطق الأشياء أن يعرف كيف يتحرك في الفراغات التي يتيحها تنوع السنن التي تحكم الظاهرة الواحدة. نحن نحب الاجتهاد ونحب التجديد والإبداع والريادة الفكرية، ونحترم كل من يفعل ذلك، ونحب إلى جانب ذلك وحدة الكلمة وتماسك الصفوف وتماثل الخطوات .... نحن نحب أن تكون أوطاننا قوية وصلبة، ونحب أن

تكون قرارات قيادتها حاسمة وقوية ونافذة، ونحب إلى جانب ذلك أن تقوم أمور البلاد والأسر والمدارس والمصانع والهيئات على التفاوض والتشاور وتبادل الآراء والإقناع والاختيار. نحن على حق في كل أنواع هذا الحب، فالإنسان لا يسأم من دعاء الخير؛ كما أخبرنا العزيز الحكيم، لكن السنن لا تسمح بإنجاز كل ذلك وتحققه، وكما ذكرت في العنوان **فإن بين ممارسة الاختيار والتماسك شيئاً من التضاد**. ولعلي أسلط الضوء على هذه السنة عبر المفردات الآتية:

١- نحن نعرف أن الاجتهاد في المسائل الحضارية والدعوية والشرعية مطلوب دائماً من أجل توفير غطاء ثقافي ومنهجي للنوازل والوقائع الجديدة، وهذا ما نلمسه في قوله -صلى الله عليه وسلم-: **(إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فأخطأ فله أجر واحد)**[٢٣] إن الله -سبحانه- حين أباح للمجتهدين أن يجتهدوا أباح لهم أن يختلفوا، بل إن المجتهد إذا انتهى إلى رأي في مسألة من المسائل، لم يكن له الحق في تقليد غيره، وهذا يعني أن الاجتهاد يكرس الاختلاف. والاجتهاد ليس في الفروع والجزئيات الفقهية فحسب، فهناك اجتهادات دعوية تتعلق بمناهج العمل الدعوي وترتيب أولوياته، وتتعلق بالموقف الذي ينبغي اتخاذه من المنافسين والخصوم، وهذا يجعل الدعاة في الساحة الواحدة يظهرون بمظهر المنقسمين على أنفسهم بل بمظهر المتنافسين في بعض الأحيان. وهذا شيء لا مناص منه، ولا يمكن الفكاك من كل تداعياته، وإنما يمكن تلطيف بعض آثاره. بعض الدعاة يتضايقون من تعدد الجماعات واختلاف مواقفها، ويسعون إلى توحيد كلمتها، وبعد طول معاناة يجدون أنفسهم عند مربع الصفر، لأنهم يريدون كسر السُّنة التي نحن بصددها. وبعض الجماعات حققت فيما بينها نوعاً من الاندماج والتوحد، وهي تفاخر بذلك، ولكن إذا دققنا في الأمور وجدنا أنه اندماج شكلي، والذي ينظر من الداخل يرى تيارات ومدارس عديدة

٢٣- رواه البخاري ومسلم.

داخل الجماعة الكبيرة، وهذا من سنن الله -تعالى- في الخلق. **وإذا كان من غير الممكن حمل الناس على مذهب فقهي واحد، فإن من غير الممكن أيضاً جعل الدعاة يتحركون في إطار جماعة واحدة.**

٢-الحرية هي القدرة على الاختيار، ولا يمكن للاختيار أن يكون حقيقة واقعة إلا إذا كان هناك خيارات، وحين نربي أبناءنا على الحرية في التعبير واختيار ملابسهم وحوائجهم ... فإن الأسرة تبدو في عين المراقب وكأنها مفككة وغير مهذبة بالقدر الكافي، وهذا ليس بعيداً عن الواقع في بعض الأحيان، حيث لا يعرف الأطفال الحدود الفاصلة بين حرية الذات واحترام الأبوين، والحدود الفاصلة بين ما هو من حقوقهم وما ليس من حقوقهم. وتظهر الأسرة التي يمارس الأبوان فيها تربية صارمة، ويحجران على أبنائهم الكثير من التصرفات - بمظهر لائق، وتبدو أشد تماسكاً وانسجاماً. وقل مثل هذا في الدول والمدارس والجماعات والهيئات..... وهذا شيء طبيعي حيث إن الحرية تتصل بالحداثة واللذة والتجريب والعشوائية، أما الاستبداد فإنه متصل بالانسجام والاتساق والتزام الحدود بشكل دقيق وصارم، لكن من الملاحظ أن التماسك الموجود لدى الحكومات والأسر... المستبدة هو ظاهري ومؤقت، ويشتمل على العوامل التي تقسمه على نحو نهائي، كما حدث لدى الدولُ التي أخذت بالنظام الشمولي في المعسكر الاشتراكي. وعلى العكس من هذا تماماً الدول التي تأخذ بالشورى، ويكون فيها للناس حق الولاية على أنفسهم، وتكون السلطات فيها موزعة على العديد من الدوائر ... فإنها تبدو متصدعة وهشة، لكنها تُخفي تحت ذلك التصدع وحدة عميقة وصلابة عظيمة، بسبب الحرية والكرامة التي يشعر بها المواطنون العاديون وبسبب ضمان سلامتها من المغامرات الفردية.

٣- الوعي الشعبي ينفر من الفرقة، ويُضمر خوفاً شديداً من الانقسام وفتنه وابتلاءاته،

ولهذا فإن الناس ذوي الثقافة المنخفضة يميلون إلى التقليد بوصفه الأداة التي تجمع أعداداً كبيرة من الناس تحت لواء واحد، كما أنهم يميلون إلى تقديس العادات والتقاليد للسبب نفسه، ويرتاحون للتوحد الشعوري الذي يتيحه التعبد الجماعي -كحلقات الذكر مثلاً- على مقدار إعراضهم عن الأحكام الموضوعية التي تكشف عن الأخطاء، وتؤدي إلى تقسيم الناس إلى مخطئ ومصيب. وهذا يهيئ المناخ لانتشار الخرافات والشعوذات والأكاذيب دون أن يكون هناك من يتصدى لها بالنقد والتمحيص على ما هو ملموس في المجتمعات التي يسودها الجهل والأمية.

● كيف نتعامل مع هذه السنة؟

١- من المهم أن نسلّم أننا لا نستطيع أن نجتهد دون أن نختلف، كما أننا لا نستطيع أن ننمّي لدى الناس الشعور بالحرية والكرامة دون أن نواجه مخاطر الانقسام السطحي أو العميق.

٢- الاجتهاد المنضبط بالأصول والثوابت، وحرية الاختيار المؤطرة بالآداب العامة والأعراف الصالحة يصبان في مصلحة الأمة، وعلينا أن نقاوم الفوضى في الاجتهاد والاختيار.

٣- إذا كانت الوحدة بين العاملين في حقل الدعوة الإسلامية غير ممكنة، أو غير مضمونة الاستمرار، فإن علينا أن نسعى إلى المعايشة والتعاون والتآزر على مقدار ما تسمح به المعطيات والظروف الراهنة.

٤- كلما تعلمنا أكثر، وتحسنت درجة وعينا ومارسنا التربية بطريقة أفضل كانت مخاطر الحرية أقل، والعكس صحيح.

●●●●

7

التهميش...
طريق الاضمحلال والخسران

7 التهميش... طريق الاضمحلال والخسران

قد مضت سنة الله -تعالى- في خلقه بجعل الحيوية والنمو والقوة والفائدة مرتبطة باتصال الأشياء بتيار الحياة العام، كما مضت سنته بجعل الاضمحلال والضعف وفقدان الوظيفة والجمود متصلة بالعزلة والتهميش والعيش بعيداً عن التحديات والمهمات والمسؤوليات. وهذه السنة تعود إلى أن الإنسان -والعديد من النظم والأشياء- حين يعيش حياة مملوءة بالحركة والنشاط، وحين يقوم بدوره في إعمار الأرض، ويشعر بأنه يغالب الصعاب ويواجه التحديات.... إنه في هذه الحالة يتعلم كل يوم شيئاً جديداً، كما أنه يكتسب مناعة جديدة، فالممارسة تُكسِب الخبرة، ومقاومة التحديات تُصلِّب الإرادة، وتستنفر الطاقات

الهاجعة، **وتكشف عن الإمكانات الكامنة.** أوراق الأشجار تظل حية ومنتعشة ما دامت متصلة بالأغصان،إنها من خلال تلك الصلة تحافظ على وجودها، وتستمد غذاءها، وتقاوم عوادي البيئة والأمراض المختلفة بوصفها جزءاً من شجرة كبيرة؛ ويبدأ كل هذا بالاضمحلال في اللحظة التي تنفصل تلك الورقة فيها من الغصن حيث تسير في طريق الذبول وخسران الذات والصيرورة إلى أن تصبح هباءً منثوراً.

تطبيقات عملية:

١- عضلات الرجلين قوية، ومن قوتها تتحمل ثقل الجسد كله، فإذا مرض أحدنا، ولزم الفراش مدة طويلة، فإن تلك العضلات تمضي في طريق الضمور، وإذا عوفي المرء بعد سنتين أو ثلاث، فإنه يحتاج إلى إعادة تأهيل حتى تستعيد تلك العضلات لياقتها، وما كانت عليه في سابق عهدها. وإن الرياضي حين يترك التمرين يبدأ جسمه بالترهل لأن التوقف عن الرياضة قد حرم عضلاته ما كانت تحصل عليه من حركة .. وهكذا فإن العضلات تضمر، ويخسرها صاحبها أو يخسر ما كان فيها من قوة وشدة.

٢- حين يسكن المرء في البادية أو مكان معزول وناءٍ عن المدن، فإنه يهمِّش نفسه إذ يبتعد عن تيار الحضارة الذي يتعرض له من يعيش في المدن. وفي الحديث الصحيح: **(من بدا فقد جفا)**[٢٤]. أي من سكن البادية لم يتهذب طبعه بما يجعله أكثر رقة، وأفضل تآلفاً مع الناس. إن العيش في العواصم والمدن الكبرى يجعل المرء يحتك بأشخاص من جنسيات شتى، فيتعلم منهم، ويطّلع على خبرات متنوعة، كما أن الذي يعيش في مدينة كبرى يذوق طعم الرفاهية، ومن ذاق طعم الرفاهية صار أكثر اهتماماً بالتفاصيل الصغيرة، كما أنه يراعي مشاعر الناس على نحو أفضل بكثير من الذي يعيش في بيئة فقيرة أو مزدحمة أو فوضوية، وهو في الوقت

٢٤- أخرجه الطبراني.

نفسه يتوقع من الناس أن يعاملوه بطريقة أشد لطفاً وأكثر احتراماً. هذه المعاني الإنسانية النبيلة تضمحل من خلال العيش في بيئة متوحشة أو قاسية، وبذلك يخسر الإنسان إمكانات التهذيب والنعومة والرقي التي يمكن أن يحصل عليها لو كان يعيش في وسط متحضر.

٣-لدى كل من يعيش في مجتمع وازع داخلي، هو عبارة عن جرس يدق في الكثير من الأوقات، يدق محفزاً على ما يعده الشخص عملاً خيراً، ويدق ناهياً ومحذراً عن الوقوع في الأمور التي يعدها الشخص شريرة أو قبيحة أو غير لائقة. هذا الوازع يقوى ويرتقي وينمو كلما أصغينا إليه، واستجبنا لمبادراته وتحذيراته، لأننا بذلك نفسح له مجالاً في حركتنا اليومية، وهو يتنفس من ذلك المجال، وينتعش. وسيحدث العكس حين نصمّ الآذان عن سماعه، ونُعرض عنه، إنه سيفقد قدرته على الرنين وقرع القلوب تدريجياً، حتى لا يكاد يُسمع، وربما اقتصر عمله فيما بعد على الحث على عمل الواجبات والفضائل الكبرى فقط مثل الصلاة، وعلى التحذير من الفظائع مثل قتل النفس أو ضرب الوالدين.... إننا حين نهمّش ضمائرنا ندفع بها في طريق الاضمحلال، وبذلك نخسرها ونخسر الفوائد الجمة التي تعود علينا من وراء وجودها، ولاسيما أننا نعيش في زمان تتراجع فيه الرقابة الاجتماعية، وتزيد فيه إمكانات الغش والاحتيال والخداع والانحراف، ولذلك فإن الحاجة إلى وجود رادع داخلي قوي وفعال آخذة أيضاً في الزيادة؛ والله المستعان.

٤- خلال الأربعين سنة الماضية (هي عمر الصحوة المباركة) بُذلت جهودٌ كثيرة في سبيل إصلاح حال المرأة المسلمة، ويمكن أن أقول إن نحواً من (٨٠٪) من تلك الجهود كان يصب في مسائل محددة، هي: حجاب المرأة، واختلاطها بالرجال وشروط ممارستها للعمل والوظيفة وإثبات أن الإسلام حررها وكرمها في وقت مبكر

جداً، وقبل كثير من الأم. أما الجهود التي بُذلت في تنمية المرأة وزجها في خضم الحركة الاجتماعية فإنها لا تزيد على(٢٠٪) وهذا يعني بالضرورة تهميش دور المرأة في نهضة الأمة وتطوير المجتمع. وأتصور أن المطلوب هو العكس: (٨٠٪) من الجهد في تنمية المرأة ومساعدتها على أن تكون زوجة جيدة وأماً ممتازة وداعية مؤثرة، وعالمة وكاتبة ومفكرة مبدعة، ورائدة في العمل الطوعي والاجتماعي.... أما (٢٠٪) الباقية فتصرف على صون المرأة وحفظها وحشمتها. النساء هن شقائق الرجال، وإن كل عمل يقوم به الرجل على صعيده الذاتي وعلى الصعيد الاجتماعي والحضاري يمكن للمرأة أن تقوم به في إطار تعاليم الإسلام الحنيف التي تدل على خصوصية المرأة في بعض الأمور. والذين يعملون وفق العادات والتقاليد يريدون من المرأة أن تكون شيئاً مختلفاً عن الرجل في كل شيء ما لم تلجئهم الضرورة والضغوط إلى تسويتها بالرجل! وهذا بعيد عن المنهج الرباني الأقوم. تهميش المرأة وعزلها عن تيار الحياة العام أدى إلى اضمحلال شخصيتها، وباتت تعاني من فراغ روحي وفكري رهيب، وكانت النتيجة محزنة، وهي أننا خسرنا المرأة، وكسبتها الأسواق، فالمرأة العربية اليوم تنفق على الزينة والحلي والثياب .... أضعاف ما تنفقه المرأة الغربية، وهذه مفارقة عجيبة. كيف يصبح من يؤمن بالله واليوم الآخر مشغولاً بزخارف الحياة أكثر من الذي لا يرى أن هناك حياة أخرى غير هذه الحياة؟!. نحن في حاجة إلى أن نعيد اكتشاف المرأة المسلمة، وحين نفعل ذلك سندرك أن الخسارة التي تكبدتها الأمة عبر قرون من خلال عزل المرأة عن مجرى الحياة، كانت فادحة وكبيرة.

٥- ترضخ بعض الدول لنظام طبقي صارم، وتقدم (الهند) نموذجاً صارخاً لذلك، وحين يسود النظام الطبقي في مجتمع فإن كثيراً من وضعيات الأفراد لا يكون مرتبطاً

بمواهبهم وأخلاقهم وجهودهم، وإنما بانتماءاتهم العرقية والطائفية، وبالظروف التي صاحبت فترة الولادة. وهذا النظام غير إنساني وغير إسلامي وغير أخلاقي، وحين تحتقر فئة لا لذنب ارتكبته، وحين تهمش مجموعة من غير سبب عملي وموضوعي فإنك تدفع بها نحو الاضمحلال وذلك من خلال تحجيم فرص ارتقائها، ومن خلال محاصرتها على الصعيد الثقافي، بل إن احتقار المجتمع لفئة من الفئات أو طبقة من الطبقات يغير في نظرتها لنفسها، فتصبح دونية، وتتصرف بناء على ذلك، وهذا واضح في سلوك كثير من السود في الولايات المتحدة الأمريكية. التهميش يُلْحق أفدح الأضرار بالفئات المهمشة، لكنه إلى جانب ذلك يُلحق الضرر بالجهة التي تمارس التهميش، وذلك لأن من غير الممكن للمهمَّشين أن يدينوا بالولاء للمجتمع الذي يضطرهم إلى أضيق السبل، ويحشرهم في الزوايا، كما أنهم لا يتفاعلون مع قضاياه وطروحاته، ولا يبدون أي حماسة للقيام بأي مبادرات إصلاحية لمعالجة مشكلاته، وقد قال أحد هؤلاء: (لماذا أدافع عن وطن لم يطعمني من جوع، ولم يؤمني من خوف)؟ وبذلك يكون المجتمع قد خسر فعلاً عطاءات طبقة من طبقاته، كان في الإمكان لو عوملت بطريقة أخلاقية وموضوعية أن تشكل رافدا عظيماً من روافد نهوضه واستقراره؛ وقد يسعى المهمَّشون إلى تشكيل تكتلات لتخريب المجتمع لأن من طبيعة الأقليات والطوائف المهمّشة أن تتخذ من خصوصياتها الثقافية والعرقية أرضية مشتركة لحماية نفسها وللثأر من المجتمع الذي ظلمها وهمَّشها، وبذلك يدخل أبناء البلد الواحدة في صراعات مريرة، كان في الإمكان تلافيها أو تحجيمها.

● هل يعني هذا أي شيء؟
إنه يعني الآتي:

١- ليس من الصواب أن نعتقد أن الانخراط في صخب الحياة وتيارها المتدفق هو عبارة عن مجموعة من الإيجابيات والخيرات والبركات، فهذا الاعتقاد يصادم اعتقادنا بأنه ليس في هذه الحياة خير مطلق وخالص أو شر مطلق وخالص، فللعيش على الهامش مشكلاته، وللعيش في بؤرة الأحداث مشكلاته أيضاً.

٢- بعض الناس يختارون بملء إرادتهم أن يعيشوا على هامش الحياة وهامش المجتمع، فلا تجد لديهم أي طموحات ولا تطلعات، ولا يمتلكون شيئاً مميزاً يمكن أن يقدموه للناس أو يتقدمون من خلاله عليهم، وهم لا يجدون فرصة للتهرب من تحمل المسؤوليات إلا اهتبلوها.... هؤلاء كثيرون جداً في مجتمعاتنا، ولا شك في أن خسارتنا من وراء تهميشهم لأنفسهم كبيرة وخسارتهم من وراء ذلك أكبر، ومن واجبنا أن ننشر الوعي بأخطار العزلة والرضا بالانزواء والوقوف موقف المتفرج؛ وعلينا كذلك أن نقاوم كل سياسات التهميش الظالم الذي يمارس في أي مجال من المجالات.

٣- من الواضح أننا لا نسير في اتجاه فرض التهميش وتوسيع دوائره، وإنما نتجه نحو نوع جديد من التهميش الذي يفرضه (العجز) ونقص الكفاءة، فالتشريعات والقوانين تتحسن وتتطور لتصبح أكثر عدالة وإنصافاً، لكن العولمة تنشر روح المنافسة الجنونية، وتوجِد المزيد من الفرص للأقوياء، مما يعني أن التهميش سيكون على نحو آلي من نصيب الضعفاء: الضعفاء في أخلاقهم ومعارفهم ومهاراتهم وأموالهم... وإن على كل واحد منا أن ينظم شؤونه، ويبذل الكثير من الجهد كي لا تدفع به أمواج العولمة في اتجاه الشاطئ حيث لا غذاء ولا ماء!.



8

الإنسان...
صاحب رغبات متعارضة



8

الإنسان...
صاحب رغبات متعارضة

إن

الإنسان لا يحب رؤية الأشياء على ما هي عليه ولا الاعتراف بالواقع حين يقف في طريق طموحاته، وهو في معظم الأحيان لا يعترف بالسنن التي بثها الله -تعالى- في الكون إذا ما كان ذلك الاعتراف سيحدّ من نفوذه ورغبته الجامحة في الاستحواذ على كل شيء!

يريد الإنسان أن يعيش حياته بالطول والعرض: أطول مدة ممكنة، وهي مدة مفتوحة طبعاً مع أرغد عيش وأتم صحة وأفضل مكانة... إنه لا يصرِّح بهذا لكن حركته اليومية وأحلامه وتطلعاته تنطق بذلك على نحو بليغ!.

لا يعرف الإنسان أنه يعيش على أرض محدودة الموارد، وأن ما يرغب

فيه يرغب فيه غيره من مخلوقات الله -تعالى- ولا يعرف أن رغبته في امتلاك أكبر قدر ممكن من المال لا يمكن أبداً أن تتحقق مع راحة البال، فأصحاب الثروات الكبيرة يستمتعون -لاشك- بجزء منها، لكن ذلك يقتضي منهم السفر من بلد إلى بلد، والدخول في خصومات ومنازعات لا حد لها، كما يتطلب منهم أن يستعدوا لسماع كثيرمن الأخبار السيئة و المنغِّصة عن حريق يلتهم متجراً، وعن موظف خان الأمانة، وعن بضاعة، لا تجد من يشتريها.....

يريد الإنسان أن ينعم بمشاعر العيش في أحضان الوطن وبالأمن الذي توفره الإقامة بين الأهل والأصحاب، ويريد إلى جانب ذلك أن يحصل على منافع الغربة والسفر من سعة الأفق وزيادة الخبرة والتجربة ووفرة الرزق ...، وهذان الأمران لا يجتمعان. على نحو ما قال الشاعر:

إلى الله أشكو في المدينة حاجة وفي الشام أخرى كيف يجتمعان؟

نحن الكتَّاب لدينا شيء من هذا، فنحن نريد أن نكتب كتاباً يؤثِّر في الصفوة، كما يؤثِّر في العامة، ويتلقاه بالقبول والتقدير من يعرف مؤلفه ومن لا يعرفه، كما نود أن نكتب كتباً لكل الأزمان .... وهذا لا يكون، فإن الكاتب إذا ربح الصفوة خسر العامة، وإذا ربح العامة خسر الصفوة وهكذا ...

الإنسان فعلاً حائر في أمره، وكل واحد منا هو مصدر حيرة لغيره، ويبدو أن طلاقة طموحاتنا وأحلامنا وجهلنا بالواقع إلى جانب تمتعنا بالإرادة الحرة قد حمَّلنا أعباء لا نقوى على حملها، وجعلنا متعبين بسبب الانخراط في عمليات اختيار لا نهاية لها!

● هل يعني هذا أي شيء؟

إنه يعني الآتي:

١- علينا أن نعرف أننا لا نستطيع الحصول على كل شيء، وأن علينا أن ندرّب أنفسنا على التنازل عن بعض الأشياء في كثير من الأحيان.

٢- القناعة والرضا بالمقسوم وكبح جماح النفس أمور مهمة على صعيد التقليل من تعارض رغباتنا.

٣- نحن في حاجة إلى تعميق فقه الأولويات في حياتنا العامة حتى نعرف قيمة ما نحصل عليه وقيمة ما سندفعه، فيكون اختيارنا أقرب إلى الرشد. وربما عدت إلى هذه المسألة في موضع آخر.

●●●●

9

رفاهية الروح رهن بالتطوع

9 رفاهية الروح رهن بالتطوع

نحن

نعرف على نحو جيد رفاهية الجسد وأناقته، حيث يتجلى ذلك من خلال نيل حظ وافٍ من الراحة ومن خلال لبس النفيس وركوب الفاخر وأكل ما تشتهيه النفس، والبعد عن القيام بالأعمال الشاقة.... ونعرف أن الرجل الأنيق هو الذي يهتم بزيه ومظهره، فيلبس الثياب ذات الألوان المتناسقة والثياب المكوية، والملائمة للجو والمهنة والمناسبة.... وإذا بحثنا عن القاسم المشترك بين كل ذلك وجدنا أنه يتجسد في تجاوز حالة الضرورة، أو الوضعية التي يتوفر فيها الحد الأدنى من شروط تلبية الحاجات، كالذي يجد من الطعام ما يقيم أوده، ومن اللباس ما يستر عورته.....

أما أناقة الروح ورفاهيتها فتتمثل في تلك المشاعر النبيلة والدافئة التي تغمرنا حين نتجاوز في أعمالنا مرحلة الواجب إلى مرحلة التطوع والتنفل ومرحلة التضحية والعطاء المجاني. وتلك المشاعر هي مزيج من مشاعر الغبطة بما يسره الله -تعالى- وأعان عليه من عمل الخير بالإضافة إلى مشاعر الفرح بالإنجاز إلى جانب مشاعر الثقة بالنفس والتفوق وإلى الشعور الجوهري الذي يغمرنا حين نكون على الطريق الصحيح.

لعلنا لاحظنا أن رفاهية الجسد تقوم على المزيد من الأخذ والاقتناء والاصطفاء، أما رفاهية الروح فإنها تقوم على المزيد من العطاء المجاني والطوعي، وهذه مفارقة لافتة نتعلم منها ملامح العظمة الحقيقية لهذا الدين والتي تتمثل في أمرين أساسيين: الأول هو العبودية الحقة لله -تعالى- والثاني هو نفع العباد والإحسان إليهم. وتذكرني هذه المفارقة بالمفارقة الموجودة بين (المال) و(العمل) حيث إن القانون الذي يحكم (المال) هو الأخذ والجمع، أما القانون الذي يحكم (العمل) فإنه البذل والعطاء، فأهل الثراء هم أهل جمع وجباية، وأهل الخيروالفضل هم أهل عمل ونفع.

يقوم كل مجتمع برسم خارطته القيمية والخلقية من أفق عقائده وتقاليده ونظرته العامة للحياة، ونجد في كل خارطة ما يشير إلى ما هو من قبيل الواجب الأخلاقي، وما هو من قبيل المرغوب أو المندوب أو المستحسن، وإن الجهود التربوية في البيوت والمدارس تتكفل بتوضيح معالم تلك الخارطة، كما تتكفل بتوضيح نوعية المشاعر التي ينبغي أن تثيرها الأفعال والمواقف الأخلاقية المختلفة، وعلى سيبل المثال فإنك إذا كنت في صحراء، وطلب منك رجل عطشان شيئاً من الماء حتى يروي غليله، فإن المشاعر التي تغمرك في حال سقياه هي مشاعر القيام بالواجب وضرورة إنقاذ روح من الهلاك، وإذا لم تفعل فإن ضميرك سوف يهتاج ويزمجر، وستشعر بالتقصير

والتفريط الشديدين؛ وذلك لأن الموقف موقف إغاثي، وإن ما يؤثر عن كثير من العرب القاطنين في الصحراء من قصص معبِّرة عن الكرم والشهامة نابع من هذا المعنى. وسيكون الموقف الأخلاقي مختلفاً جداً لو كان طالب الماء أو غيره في مدينة كبرى، أو كنت حين مررت به ضمن قافلة كبيرة، وهذا واضح.

أنا أشعر أنَّ ما نحس به من متعة روحية فائقة حين نقوم بعمل ليس واجباً علينا، إنما هو عاجل الجزاء والمثوبة من الله -تعالى- لأنه -عز وجل- أكرم من أن نعامله نقداً، ويعاملنا نسيئة!.

نحن نشعر بالتأنق والرَّفَه الروحي إذا:

- بادرنا بالسلام من كان عليه هو أن يبادرنا به، كما يحدث حين يُلقي السلام الكبير على الصغير، والماشي على الراكب...
- إذا قمنا بتزكية أموالنا، ثم شرعنا في الصدقة.
- إذا قمنا الليل، وحرصنا على النوافل الراتبة.
- إذا عفونا عمن ظلمنا وأساء إلينا.
- إذا صبرنا على ما يبديه بعض الأقران والأقرباء من سيِّئ الأخلاق وقبيح التصرفات.
- إذا أصلحنا بين متخاصمين.
- إذا أقرضنا محتاجاً قرضاً حسناً.
- وهناك صور أخرى من نحو هذا، والذي يجمع بينها جميعاً هو أننا كنا لما فعلنا ما فعلناه مخيَّرين لأننا نقوم بما لا يجب علينا القيام به.

● هل يعني هذا أي شيء؟

إنه يعني الآتي:

١- إن رفاهية الجسد تعزز الندرة في المجتمع وتزيد في شح الموارد، لأنها تحتاج دائماً إلى المال، والذي نشعر على نحو مستمر أن المتوفر منه أقل من المطلوب، مهما كانت أوضاعنا المالية ممتازة. أما رفاهية الروح فإنها تعمل بطريقة معاكسة لأنها تُوجِد فائضاً، فهي لا تحيا إلا من خلال العمل والعطاء والمعاونة، ولهذا فإن التأنق الروحي، هو مشاعر بالنسبة إلى من يظفر به، وهو خير ونماء ورخاء بالنسبة إلى الآخرين، وليس كذلك التأنق الجسمي و العمراني.

٢- الشعور بالرفاهية الروحية هو طريق كسب محبة الله -تعالى- ورضوانه، والذي يشكل أغلى أمنيات المسلم في هذه الحياة، وما أجمل قول الخالق -جل وعلا- في الحديث القدسي: (ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه)[٢٥].

٣- نحن في حاجة إلى إثراء ثقافة التطوع والخدمة العامة حتى نخفف من تيار المتعة الشخصية الذي يجتاح العالم اليوم، وحتى نخفف من مشاعر الأنانية التي تتعاظم في كل مكان من الأرض، وهذا يحتاج إلى جهود متميزة من الكبار والوجهاء والأثرياء، فالأمم ترتقي بالنماذج والقدوات أكثر من ارتقائها بالمفاهيم والأفكار.

●●●●

٢٥- رواه البخاري.

10

نحن من جنس ما نهجس به

10 نحن من جنس ما نهجس به

شيء

عظيم أن يتعرف كل واحد منا على ما يشكِّل شيئاً قيمًّاً وكبيراً في حياته، لأن الإنسان كائن اقتصادي، فهو لا يهتم، ولا يستغرق في التفكير إلا في الأشياء التي يعتقد أنها مصيرية وخطيرة بالنسبة إليه، أو أنها تؤثِّر في مجرى حياته وفي مستقبله على نحو جوهري. أي أن المرء لا يستطيع على المستوى الأخلاقي والإنساني أن يكون شيئاً مغايراً لما يحلم به، ويتطلع إليه. هناك من أكبرُ همه أن يفوز برضوان الله -تعالى- فتراه يبحث دائماً عن الفرصة التي تمكّنه من القيام بعمل يقربه منه -سبحانه-. وهناك من أكبرُ همه أن يربي أولاده تربية جيدة، وأن يعلمهم تعليماً جيدا، وأن يرفههم ما وسعه الترفيه....

فتجده مشغولاً دائماً بهذا، ويضرب في كل اتجاه من أجل تأمين ما يتطلبه ذلك من مال وخدمات.... وهناك من هو مشغول بتكديس ثروة كبيرة، وهناك من همُّه إصلاح مجتمعه وخدمة قضاياه وهناك وهناك.... وإلى جانب كل هؤلاء هناك من يدعي شيئاً ويهجس بشيء آخر: يدِّعي السعي للمصلحة العامة، ولا همَّ له سوى المصلحة الخاصة، ويدعي أنه مهموم بالآخرة، وهمُّه الحقيقي الدنيا... إن هذه الفكرة تضع بحق كل واحد منا على المحك، ونحن نحتاج إلى شيء من التوقف حتى نفحص طموحاتنا وأحلامنا، ونُصدر من خلالها الأحكام على أنفسنا.

وهذه إشارات سريعة بشأن هذه القضية:

١- لا يستطيع أحد أن يكفَّ عن التفكير في بعض الأمور والتطلع إلى بعض الأشياء، وقد ورد أن (**أصدق الأسماء حارث وهمام**)[٢٦]، فكل واحد من البشر يَهُمُّ بفعل شيء ويتشوق إلى فعله أو الحصول عليه، وقد روي عن عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- أنه قال لزوجه فاطمة: (إن لي نفساً تواقة، ما نالت شيئا إلا تطلعت إلى غيره؛ قد تقتُ إلى الإمارة، فنلتها، وتقتُ إلى الخلافة، ونلتها، وأما الآن فإن نفسي تتوق إلى الجنة). ونحن في الحقيقة في حاجة إلى بصيرة كبصيرة هذا الرجل، فهو يعرف نوازع نفسه، ويعرف كيف يجعل تلك النوازع تتجه إلى ما هو خير وأبقى.

٢- لماذا نعطي التطلع والهم والهجس هذه الأهمية، التي قد لا نعطيها أحياناً للفعل الذي هو -على ما يبدو- تحقيق وتجسيد للطموح؟ الحقيقة أن ما يسيطر على اهتمامنا يعبِّر عمّا لدينا من خيرية وإخلاص وتسام إلى الفضيلة أفضل من تعبير الفعل، لأننا ونحن نحلم نفعل ذلك ونحن متحررون من قيود المكان والظروف والإمكانات المحدودة والعوائق والقوى المعارضة

٢٦- انظر النهاية ٥: ٢٧٤- والحارث هو الكاسب،

... لكن حين نأتي إلى التنفيذ، فسنجد كل ذلك في طريقنا، ومن هنا كانت هناك المفارقة الدائمة بين النظرية والتطبيق؛ وقد ورد في بيان أهمية الهم والعزم على فعل الخير قوله -صلى الله عليه وسلم-: (فمن هم بحسنة فلم يعملها، كتبها الله عنده حسنة كاملة)[٢٧] والمراد بالهم هنا ليس خطور الشيء في البال ثم نسيانه كما تُنسى كل الخواطر العابرة، وإنما المراد الجزم والتصميم الذي يوجد معه الحرص على العمل. وقد كان علماء الأمة على وعي كامل بهذه المسألة؛ يقول أبو الدرداء -رضي الله عنه-: (من أتى فراشه وهو ينوي أن يصلي من الليل، فغلبته عيناه، حتى يصبح كتب له ما نوى). ويقول سعيد بن المسيب: (من همَّ بصلاة أو صيام أو حج أو عمرة، فحيل بينه وبين ذلك بلَّغه الله ما نوى).

٣- نحن في حاجة إلى أن نصعِّد اهتماماتنا ونرتقي بهواجسنا، وهذا يتم من خلال بلورتها على نحو جيد، ومن خلال دفعها إلى سطح الوعي، وعلينا ألا ننسى في هذا السياق دور اللغة، فنحن حين نتحدث عن هواجسنا أمام أهلينا وخواص أصحابنا نكون قد قمنا ببلورتها وإزالة الغموض عنها، ونكون قد هيأناها لتصبح بنية متماسكة قابلة للنقد والنقاش، كما أن الحديث عنها يجعلنا نشعر بنوع من الالتزام الأخلاقي نحو تنفيذها. ويبدو أيضاً أن للدعاء بتحقيق هواجسنا دوراً كبيراً في تحديدها وحصرها، وقد ورد في هذا أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال لرجل: كيف تقول في الصلاة؟ قال الرجل أتشهَّد، ثم أقول اللهم إني أسألك الجنة، وأعوذ بك من النار، أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- (حولها ندندن)[٢٨]. إن الدندنة تعني وجود كلام تُسمع نغمته، ولا يُفهم معناه. وقد وضَّح -صلى الله عليه

٢٧- متفق عليه.

٢٨- حديث صحيح رواه أبو داود.

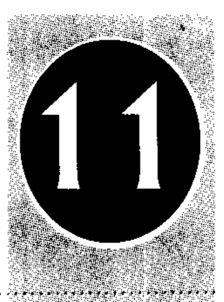
وسلم- للأعرابي أن المحور الأساسي الذي يستقطب دعاءه لا يبتعد عن سؤال الله -تعالى- الجنة والاستعاذة به من النار.

٤- نحن اليوم في عصر تنطمس فيه الأهداف الكبرى، أو قل: يتضاءل فيه الإحساس بها بسبب انشغال الذهن والقلب بتلبية الاحتياجات اليومية، وبسبب انصراف عدد كبير من الناس إلى إرواء متعة الجسد وتوفير أسبابها، ونحن حتى نوجِّه هواجسنا علينا أن نخفِّف أولاً وقدرَ الإمكان من سيطرة الرغبات العاجلة والملحَّة وتنمية الاهتمام بما هو آجل من رحمة الله ورضوانه وثوابه، وعلينا إلى جانب هذا أن نهذِّب الهواجس التي تتمحور حول المصالح الشخصية الضيقة، والتي يصحبها في العادة قدر غير قليل من الأنانية والفردية المشوهة. وشيء لطيف وجميل أن ننظر في الأسباب التي تحول دون تحقيق بعض هواجسنا الخيرة، لأن ذلك قد يساعدنا على التفريق بين الهموم الحقيقية التي تنال منا كل الحرص والعناية وبين الهواجس العابرة والشكلية والمزيَّفة.

●●●●

11

المشكل الأساسي في ضعف المحلي.
وليس في هجوم العالمي



المشكل الأساسي في ضعف المحلي، وليس في هجوم العالمي

هذه سنة من سنن الله -تعالى- في الخلق، ووعيها بالغ الأهمية في مسألة تحصين الذات وتنظيم العلاقة مع الآخرين. إن الله سبحانه جعل في كل ظاهرة من الظواهر وجسم من الأجسام عناصر داخلية تشكّل ذاتيته، وتمنحه قوامه الخاص، وجعل في البيئة الخارجية المحيطة بكل الظواهر والأجسام والأشياء عوامل وعناصر تؤثر فيها تقوية وتعضيداً كما تؤثر فيها إضعافاً وإفناءاً. وقضت حكمة الله -تعالى- أن يظل التأثير الأساسي للعناصر والعوامل الداخلية، وأن يظل تأثير العوامل الخارجية هامشياً ومحدوداً ما لم يتمكن العامل الخارجي من تحويل نفسه إلى عامل داخلي، فيأخذ حينئذ حكم العوامل الداخلية في التكوين والتأثير، ولعل من الأمثلة الموضحة لهذا ما يسمى

بـ (الحرب النفسية) حيث يهدف العدو من وراء بث الشائعات وتسريب المعلومات... إلى أن يُقنع خصمه أو عدوه بعدم جدوى الدخول في نزاع مسلح معه، أو يقنعه بأن هزيمته في الحرب هي شيء محتم، ولهذا فإن الأفضل له أن يلقي سلاحه، ويستسلم للشروط التي يفرضها عدوه. ولا يخفى أن الجهد الذي يبذله العدو في حربه النفسية هو عامل خارجي، وسيظل شيئاً غير ذي قيمة إلا إذا بدأ الجيش المحارب يتفاعل معها، وأخذ يغير في خططه ومواقفه بناء عليها، حيث تتحول مقولات الأعداء من كونها شيئاً خارجياً يمكن سد الآذان دون سماعه إلى شيء داخلي يثير النزاع بين القيادات، ويُلقي الرعب في قلوب الجنود. وقد أشار إلى هذا المعنى سيف الله خالد بن الوليد -رضي الله عنه- حين حدَّثه بعض جنوده عن كثرة أعداد الروم في إحدى المعارك حيث قال عن جواده: (ليت الأشقر يشفى من عرجه ويُضعف الروم في العدد)! إنه يرى مشكلته في مرض جواده، وليس في كثرة عدوه. وإذا تأملت الآيات الكريمة الآتية وجدت أنها تؤكد هذا المعنى دون أي لبس، حيث يقول -جل شأنه-: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾[٢٩]، ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾[٣٠]، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾[٣١]، ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾[٣٢].

٢٩ سورة آل عمران: ١٢٠.

٣٠- سورة آل عمران: ١٢٠.

٣١ سورة النحل: ٣٣.

٣٢ سورة إبراهيم: ٢٢.

إن العولمة قد ألغت المسافات المكانية، وأدى التطور التقني المذهل إلى تداخل الثقافات على نحو لم يكن في الإمكان تخيله والحدس به، ومن هنا فإن من المهم أن ندرك أن سيطرة ثقافة على ثقافة، وتغلب إرادة على إرادة وتحقق مصلحة على حساب مصلحة أخرى.... سيكون أمراً لا يمكن تجنبه حين تختل موازين القوى، فالعالم كله اليوم عبارة عن حلبة كبرى للصراع، وحين تهرم المدنيَّة الإسلامية، وتفقد القدرة على الإبداع، فإننا لا نتوقع شيئاً سوى سيطرة المدنيَّة والثقافة الغربية عليها. لست ممن ينفي وجود نوع من التآمر علينا، ولست ممن يعتقد بأن الغرب يحبُّ أن يرانا أقوياء أو مخترعين أو ذوي إرادات حرة ومستقلة؛ لأن هذا لو تحقق سيكون على حساب مصالحهم على نحو صارخ، لكن مع هذا أريد أن نفهم الأمور على الوجه الصحيح، وهو أن ثقافتنا وحضارتنا كانتا تسيطران على العديد من الأمم في الماضي، وكان ذلك بسبب قوتنا وضعفهم، وهذا يحدث بالنسبة إلينا اليوم، وإن ضغط الغرب علينا هو شيء طبيعي جداً في نظام العولمة، لكن الضغط يظل محدوداً لو كنا أقوياء ومبدعين، وكنا قادرين على تقديم نماذج إنسانية وحضارية متقدمة وراقية، أي أن المعادلة الصحيحة هي:

ضعفنا هو السبب في التآمر علينا، وليس التآمر علينا هو السبب في انحطاطنا وتخلفنا. ولا شك بعد هذا أن الغرب يستثمر قوته لنكون أضعف وأضعف، وهذا شيء طبيعي، ففي عالم تنازع البقاء يكون هناك دائماً آكل ومأكول، وغالب ومغلوب.

● وهذه بعض الملاحظات التطبيقية حول هذه السنة:

١- حين تحولت الخلافة الراشدة إلى ملك عضود لم يكن هناك للشرق أو الغرب أيُّ علاقة بذلك، وحين انغمس المسلمون في الترف أيام العباسيين، وحين ثارت الحروب والفتن

الداخلية، وخف التزام كثير من الناس بتعاليم الدين الحنيف... لم يحدث أيٌّ من ذلك بسبب المؤامرات الخارجية، وإنما بسبب الأخطاء والخطايا المتراكمة وبسبب القصور الذاتي المتطاول، وهذا لا يحتاج إلى براهين.

٢- لا تستطيع أمة في الأرض أن تفعل بأمتنا أسوأ مما تفعله بنفسها، وهذا ينطبق على كل الأمم وفي كل الأزمنة، والسبب في هذا هو أن العدو لا يملك ما يكفي من الأدوات لإلحاق الأذى بنا على نحو يزيد على ما يمكن أن نفعله بأنفسنا، إن العدو لا يستطيع أن يحمل كل واحد منا على ترك الصلاة أو على التلفظ بالكلام البذيء أو على أكل الربا، أو على عدم إتقان العمل، أوعلى أكل حقوق الناس..... إن الأعداء يطرقون الأبواب لكنهم لا يدخلون إلا إذا فتحنا لهم، وبعض المسلمين يتمادون في السوء ويقعون في معاصي يتنزه عنها كثيرون من غير المسلمين ولهذا فإن المشكلة فعلاً داخلية.

٣- نحن نعيش في جو مملوء بالجراثيم، وحين تكون درجة المناعة لدينا جيدة، فإن تلك الجراثيم لا تؤثر فينا، ولا نشعر بوجودها، وحين تجرح إصبع أحدنا يجد الجرثوم أن الطريق إلى غزو البدن بات مفتوحا، ونلاحظ خلال وقت قصير ابتداء معركة بين الجرثوم والجسم، تنتهي بتغلب أحدها على الأخر. هكذا حياتنا الحضارية والثقافية، فنحن حين نكف عن الإبداع والتصنيع تغزونا السلع المستوردة، ونجد أن المورِّدين يفرضون شروطهم علينا. وحين تضعف جيوشنا نكون قد صرنا في وضعية تُغري الآخرين بغزونا واستعمارنا. أمة الإسلام في حاجة ماسة إلى وعي هذه السنة العظيمة والقيام بنقد أوضاعها على أساس أنها تتحمل كامل المسؤولية عنها، وحين تفعل ذلك فستجد أن تخريب الأعداء لحياتنا عبارة عن وهم أكثر من أن يكون حقيقة!.

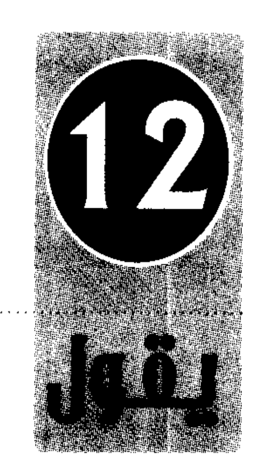


12

فهم الماضي شرط لفهم الحاضر

هي...
هكذا





فهم الماضي شرط لفهم الحاضر

الأصوليون في تعريف الشرط: ((إنه ما يترتب على عدمه العدم، ولا يترتب على وجوده وجود ولا عدم لذاته)). وإذا صح أن فهم ماضي الأمة فعلاً هو شرط لفهم حاضرها، فإن التعريف الذي أشرنا إليه يعني أننا قد نفهم الماضي على نحو جيد، ولا نتمكن من فهم الحاضر، وذلك بسبب وجود شروط أخرى لفهمه كأن نعرف عنه بعض التفاصيل، أو نعرف القوى المؤثرة فيه اليوم، وأحياناً تكون أحداث الحاضر مقطوعة الصلة بالتاريخ، إلا على نحو ضعيف كما لو أنه حدث زلزال في منطقة لم يحدث فيها أي زلزال في السابق، ولهذا فإن من الممكن أن نقول: إن كل ماله ماضٍ وتاريخ يحتاج فهم

حاضره إلى فهم ماضيه وتاريخه.

السؤال الآن: لماذا لا نستطيع فهم حاضر الأحداث والوقائع والأشياء والعلاقات إلا إذا فهمنا تاريخها؟

الجواب على هذا هو أن الواقع الذي نعيشه يتشكل من مجموعة من الأنشطة التي يقوم بها الناس الذين يتحركون في هذا الواقع، ومن المعطيات والنتائج التي تترتب على ذلك الحراك؛ ويمكن القول: إن الناس يظلون في إنجازاتهم ومواقفهم وعلاقاتهم محكومين بالمفاهيم والأفكار التي يحملونها، كما أنهم يخضعون للعادات والتقاليد والأعراف السائدة، أضف إلى هذا أن هناك تأثيراً لا يستهان به للمكان وأجوائه وموقعه الجغرافي وموارده، وللتطورات التي طرأت، وتطرأ على كل ذلك، إن لكل ما ذكرنا بعداً تاريخياً يتحكم في الحاضر على وجه من الوجوه، ولا بد لنا من فهم ذلك البعد حتى نفهم النتائج التي تترتب عليه، وانطلاقاً من هذا فإن الأمم المتقدمة تهتم بتاريخ العلوم وتراجم الرجال العظام الذين كان لهم أثر بالغ في تطورها، وإنك لترى لديهم الكثير من الأقسام العلمية التي تقدِّم للدارسين في الجامعات المرموقة الزاد المعرفي القيِّمَ الذي يمكِّنهم من فهم نشأة كثير من العلوم ومن فهم المنعطفات الحادة التي مرت بها، وإن المرء يشعر بمتعة كبيرة حين يطلِّع على الجهود المبذولة في هذا الشأن، أنا شخصياً حين أقرأ في علم أعرف تاريخه على نحو حسن أشعر وكأنني أتحرك في غرفة مضاءة على نحو ممتاز، وحين لا يتوفر لي ذلك أشعر وكأنني أتحرك في غرفة مظلمة ومملوءة بالأشياء المبعثَرة. إن علينا أن نعترف أننا لا نملك أي رصيد ذي قيمة في مسألة تاريخ العلوم، وفي مجال الاهتمام بالجذور العتيقة للواقع الذي نعيش فيه والمشكلات التي نعاني منهامع أن (السير في الأرض) الذي أرشدنا الله -تعالى- إليه يعني فعلاً البحث

في الماضي لرؤية كيفيات نشوء الظواهر الكبرى ورؤية مراحل تطورها ومآلاتها. لا شك في أن القصور الذي نعاني منه على هذا الصعيد يعود إلى أمرين أساسيين: الأول: هو عدم معرفة أهمية التاريخ لفهم الواقع، والثاني: هو صعوبة البحث في تاريخ العلوم والأوضاع السائدة، ولهذا فإنك ترى مئات الكتب في العلم الواحد والتي تعرض معلومات مكررة، ولا ترى أكثر من ثلاثة أو أربعة كتب في تاريخه!.

● والآن هذه بعض التطبيقات السريعة لهذه السُنة:

١- يلفت نظرك حين تتجول في دول المغرب العربي انتشار المذهب المالكي هناك دون غيره من المذاهب الأربعة، مع أنها جميعاً مشرقية، ولا تستطيع فهم ذلك إلا إذا عدت إلى التاريخ البعيد أي إلى ما قبل ألف وثلاثمائة سنة حيث يذكر بعض المؤرخين أن وفداً من حجاج المغرب العربي زار الإمام مالك بن أنس في المدينة المنورة، وتحدث عن والي المغرب بخير، فقال مالك: يا ليت المدينة تُرْزَقُ والياً أو أميراً مثله. وحين عاد الوفد إلى المغرب حدثوا أميرهم بما قاله مالك، فسُرَّ لذلك، وأمر بتدريس مذهبه، ومن ذلك اليوم أخذ علم مالك ينتشر هناك. وإذا صحَّت هذه الرواية فإن كثيراً مما ذُكِر من الأسباب الموضوعية لاحتفال المغاربة بالمذهب المالكي يصبح قليل الأهمية، أو لا معني له.

٢- من الملاحظ أن فقهاءنا القدماء ركزوا تركيزاً شديداً على الشروط والصفات التي ينبغي أن تتوفر في أمير المؤمنين أو الإمام الأعظم، على حين أنهم لم يحفلوا بأسلوب ممارسته للسلطة وتحديد صلاحياته وكيفية محاسبته ... مع أن هذا أهم بكثير . ونحن إذا لم نرجع إلى التاريخ فسوف نتهمهم بالقصور وعدم فهم طبيعة

المسؤوليات القيادية والسياسية؛ ولن نستطيع إنصافهم إلا إذا قرأنا أوضاع الدولة في ذلك الوقت حيث كانت بسيطة محدودة في مهماتها وصلاحياتها ومسؤولياتها وأعداد موظفيها، وكانت مفاتحة كبار مسؤوليها في أي أمر سهلة وميسورة، وفي وضع كهذا يكون صلاح الدولة كلها منوطاً بصلاح رأسها، كما كان يرى القدماء، وهيَ رؤية لم تكن صحيحة لكنها سائغة ومفهومة. وهكذا فمن فَهْم التاريخ ومعطياته في هذه القضية نستطيع اكتشاف ما علينا أن نفعله بعد أن تغير كل شيء.

٣- مر على العالم الإسلامي ما يقرب من عشرة قرون، وكثير من الناس يهتمون بالصيام أكثر من اهتمامهم بالصلاة حتى قال ابن الجوزي: **وفي زماننا مَنْ إذا جلدتَه حتى يصلي ما صلى، وإذا جلدتَه حتى يفطر في رمضان ما أفطر!** مع أننا نعرف أن أهم ركن من أركان الإسلام بعد الشهادتين هو الصلاة، وهذا الخلل في الاهتمام ظل موجوداً إلى عهد قريب، ولا نستطيع أن نفهمه إلا إذا عدنا إلى التاريخ؛ ويغلب على ظني في هذا السياق أن الأمة مرت بفترة انقطاع حضاري ساد فيها الجهل، وقلَّ العلم، وحين يحدث ذلك يصبح تحكم العادات والتقاليد بسلوك الناس أكبر من تحكم المبادئ والأحكام الشرعية، كما أن تأثير رقابة الناس يصبح أكبر من تأثير الوازع الداخلي، ويبدو أن إفطار رمضان يعبِّر في نظر الكثيرين عن نقص في الرجولة، وليس كذلك ترك الصلاة، وهذا ما دعا الكثير من المسلمين في الماضي إلى التشبث بالصيام والتهاون بالصلاة؛ وقد أخذت هذه الظاهرة بالتراجع على نحو لافت بسبب انتشار العلم واتساع مساحة الحرية الشخصية.

٤- نلاحظ اليوم أن كثيراً من المسلمين يشكون من سوء أحوال العالم الإسلامي، وبعضهم يعتقد دون تردد أن المرحلة التي نمرُّ بها هي الأسوأ في تاريخ الأمة، وربما لم

يكن هناك ما يشبهها سوى مرحلة سيطرة التتر والمغول على أجزاء عزيزة من العالم الإسلامي. وهذه الشكوى ليست في مكانها فيما أرى فنحن على الرغم من كل الجراح نعيش في عصر من أزهى عصور الإسلام، لكن لا نستطيع أن نعرف هذا إلا إذا عدنا إلى التاريخ، وقرأناه بعمق واتزان ووفق معايير محددة،وليس هذا هو المكان المناسب للقيام بذلك، لكن يمكن أن نفهم أسباب تنامي الشكوى اليوم من خلال العودة إلى التاريخ القريب أي ما يقرب من نصف قرن حيث أخذ المثقفون الإسلاميون يستخرجون من التاريخ الإسلامي أوضح ما فيه من صور المجد والنصر والعزة والتفوق والإبداع، ثم نشروها، وثقَّفوا بها الأجيال الجديدة، وكان ذلك من أجل المحافظة على الشخصية الإسلامية من التأثر بالوافدات الغربية، وقد نجحوا في ذلك نجاحاً كبيراً، لكن الناس اليوم لا يعرفون أن الصور المشرقة التي اطلعوا عليها هي جزء من التاريخ الإسلامي لكنها لا تمثله على نحو جيد، ففي تاريخنا انكسارات ومشكلات كبيرة، وهي التي أدت بالأمة إلى فقد الريادة العالمية والانحدار إلى ما هي فيه!.

● كيف نتعامل مع هذه السنة؟

١- إذا كنَّا فعلاً لا نستطيع أن نفهم أي شيء حتى نفهم تاريخه، فإن هذا يعني أن نجعل في بداية كل علم نقرّره في المدارس والجامعات مقدمةً نشرح فيها تاريخ ذلك العلم والأطوار التي مرَّ بها، والمساهمات الكبرى لرجالاته والآفاق التي تنتظره، فهذه أهم بكثير من التفاصيل والجزئيات المملة التي تُحشى بها أدمغة الطلاب.

٢- لدينا مشكلات كثيرة، وبعضها قديم، مر عليه قرون، وإذ أردنا فهم تلك المشكلات وتوصيفها على نحو جيد، فلا بد أن نعود إلى جذورها وأسبابها، ونحاول استيعابها

بمنهجية وحِرَفية، وما لم نفعل ذلك، فقد لا نصل إلى أي حل.

٣- حين نحاول فهم الخلفية التاريخية للواقع المعيش، فإن علينا أن نسلِّم بأننا إذ نقوم بذلك نمارس عمليات اجتهادية معقدة، كما أن من الطبيعي أن نجد الكثير من الفراغات المعلوماتية والكثير من النواقص، وهذا كله يجعل ما نتوصل إليه من تحليل وتعليل للواقع، وما نتوصل إليه من تاريخ نشأته أمراً ظنياً قابلاً للجدل والنقاش، ولن يكون من الصواب التعامل معه على أنه شيء يقيني أو قاطع، كما يفعل كثير من المثقفين!.

●●●●

13

ضعف الإنسان في قوته

13 ضعف الإنسان في قوته

إن الله -سبحانه وتعالى- زوَّد الإنسان باستعدادات كبيرة للإفادة من كل ما حوله فيما يخدم وجوده على هذه الأرض؛ وإن ما نشاهده اليوم من إنجازات تقنية مذهلة ومتتابعة قد زادت في سلطان الإنسان، ووسَّعت مجاله الحيوي على نحو لم يكن يمكن تخيله في يوم من الأيام. وإلى جانب هذا هناك نور ساطع ومستمر يضيء (داخل الإنسان) ويعمل على توجيه حركته وضبطها كي تظل القوة التي بين يديه خاضعة لسلطة الأخلاق والمبادئ، لكن الذي ثبت عبر ما لا يحصى من الشواهد أن الإنسان يظل مرتبكاً في إدارة القوة التي يحصل عليها، وهذا تعبير ملطَّف حيث إن الحقيقة أن القوة التي بذل الإنسان وقته وماله وجهده

كي يحوزها، كثيراً ما تُفسده وتغريه بالعدوان والظلم والبغي والكبر وكسر القيم والمبادئ الأخلاقية السامية، أي أن معظم الناس لم يستطيعوا تسجيل نجاحات تذكر في حماية أنفسهم من القوة التي يتمتعون بها، وهذا شيء مؤسف للغاية! إن القرآن الكريم تحدث عن هذه السنة بقوله: ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾[٣٣]- قال ابن كثير : أي : (لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض أشراً وبطراً، ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحُهم، وهو أعلم بذلك، فيُغني من يستحق الغنى ويُفقر من يستحق الفقر)[٣٤]. والحقيقة أن القوة بكل معانيها تحرِّض الإنسان على البغي والطغيان وتستحثه على التوسع على حساب الآخرين، كما تستحثه على استغلالهم، وتلك القوة قد تتجلى في المال، وقد تتجلى في السلطان والنفوذ والشرف والمنصب والجمال وفصاحة اللسان والمعرفة... إن أي قدر زائد عن المألوف والمتاح لمعظم الناس في أي لون من ألوان القوة، يُشكِّل مصدر ابتلاء لصاحبه ليرى الله -تعالى- عباده كيف يتصرفون في حالات التفوق، وكيف يتصرفون في حالات الإملاق والعسر والوضاعة والانحسار الاجتماعي.... والتاريخ والواقع يفيضان بما يصعب حصره من النماذج التي أفسدتها القوة، وقد صدق من قال: إن القوة تُسبِّب الفساد، وإن القوة المطلقة قابلة للفساد قطعاً. إن طموحات الإنسان نحو العيش أكبرَ مدة ممكنة على هذه الأرض، إلى جانب طموحاته في أن يتمتع بخيراتها بأوسع ما يصل إليه خياله من ألوان المتعة، بالإضافة إلى التلذذ بكل ما يمنحه التميز على الآخرين... إن هذه المعاني جعلت

٣٣ -سورة الشورى: ٢٧.

٣٤ - تفسير ابن كثير: ٧: ٢٠٦.

الإنسان يندفع في كل اتجاه كما يفعل الوحش الكاسر في مطاردة الفريسة، وبذلك صار فعلاً البغي شأناً من شؤونه. ويقول الله -تعالى- في آية أخرى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ ﴾[35]، إنه يتجاوز حدوده ويتمدد بمجرد شعوره بالاستغناء والاستقلال، ويذكّره الله -تعالى- بأن عليه أن يتذكر أنه سيرجع إلى ربه، فيحاسبه على بغيه وطغيانه، ويقتص منه.

من صور البغي والطغيان:

١- عدم الاعتراف بفضل الله على العبد، مما يدعوه إلى التقصير في الشكر، وهذا من تجاوز حدود العبودية.

٢- التكبر على الناس والاستخفاف بهم.

٣- رد الحق وعدم الإذعان له.

٤- رفض النصح والشعور بالكمال الذاتي.

٥- أكل حقوق الناس، أو المماطلة في أدائها.

٦- العدوان على الآخرين بالضرب والأذى.

٧- شتم الناس وسبهم واتهامهم بما ليس فيهم.

٨- تجاوز الموظف للصلاحيات الممنوحة له، أو استغلال الوظيفة لتحقيق أغراض شخصية ومصالح خاصة.

٩- تحميل المرء من ولّاه الله عليهم ما لا يطيقون من المهام والتكاليف.

١٠- ادعاء المرء ما ليس له على الصعيد الأدبي والمادي والاجتماعي.

---

٣٥ سورة العلق ٦-٨.

قد تقولون: كيف نعالج هذا الطبع المتأصل فينا؟

وأقول:

لابد في البداية من أن ننمي الوازع الداخلي لدينا كي يردعنا عن البغي والطغيان، وتنميته تكون بمجاهدة النفس من أجل التفاعل معه والاستجابة لأوامره وإشاراته.

علينا أن ننظر إلى ما مكّننا الله فيه من أشكال القوة على أنه ابتلاء لنا واختبار لما لدينا من دين وخُلُق، وعلينا أن نحاول النجاح في هذا الاختبار من خلال توظيف ما لدينا من قوة وتفوق ونفوذ في مرضاة الله -تعالى- ونفع العباد ومحاصرة الشرور.

إن الوعظ مهما كان بليغاً، فإن في مجتمعاتنا شريحة واسعة، لا تتوقف عن ممارسة الظلم والبغي إلا إذا اصطدمت بحواجز إسمنتية عالية وقوية، ولهذا فإن عدالة القضاء وتطبيق النظم بفعالية بالإضافة إلى إتاحة الفرصة الكاملة لأن يقوم الجميع بمراقبة الكل.... ذات تأثير فعال في كبح البغي، فالناس يخشون من الفضيحة، ويحرصون -في الغالب- على ألا تتعرض سمعتهم للتشويه.

على كل واحد منا مهما كان عمله وموقعه أن ينظر إلى من يخالفه ويناقشه ويعارضه .... على أنه يقوم بعمل إيجابي جداً، وذلك لأنه يردعه عن الظلم والتمادي في الخطأ؛ وعلينا أن نتذكر أن الكثير من البغي والظلم يقع بسبب تساهل الناس في حقوقهم، وبسبب عدم قيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن حماية المجتمع من الظلم والفساد المالي والإداري، تتطلب أن يشعر كل واحد منا أنه يتحمل جزءاً من مسؤولية سلامة المجتمع وصلاحه.



14

شدة الحاجة مع شدة الجهل تجعل صاحبها موضعاً للاستغلال

هي... هكذا

14 شدة الحاجة مع شدة الجهل تجعل صاحبها موضعاً للاستغلال

يتحرك الإنسان في فضاءات الحياة المختلفة، وهو يعرف الكثير الكثير، لكن ما يجهله أكثر مما يعرفه. والإنسان في هذه الحياة محتاج إلى الطعام والعلاج واللباس والمسكن، ومحتاج كذلك إلى إغناء روحه وعقله ومحتاج إلى التقدير من قبل الآخرين، وله إلى جانب كل هذا تطلعات وطموحات مشروعة، وأحياناً غير مشروعة. وهذا كله يجعل الناس يندفعون إلى تحقيق مصالحهم بل أقصى قدر من مصالحهم بأقل قدر ممكن من العناء والتكلفة، ومن مجموع كل ذلك ينشأ صراع خفي بين العباد، وذلك الصراع يكون في إطار تعاونهم والعلاقات الطبيعية القائمة بينهم. ذلك الصراع يدفع في اتجاه الاستغلال والخداع والاغتصاب ما لم

يكن هناك رادع من دين أو خلق أو خوف عقوبة أو صعوبة لا يمكن التغلب عليها... على نحو ما قال الشاعر:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفَّـةٍ فلعـلةٍ لا يظلـمُ

والناس يعرفون هذا على نحو جيد، ويحاولون حماية أنفسهم منه من خلال تنظيم تبادل المنافع وتوضيح سبل قضاء الحاجات، إلى جانب العلم الجيد بأفضل طريقة ممكنة للوصول إلى المصالح، ودفع عدوان المعتدين عليها. حين تشتد حاجة الإنسان إلى شيء من الأشياء -مهما كان نوعه- ويكون جاهلاً بالتعامل مع تلك الحاجة وجاهلاً بمصادر وطرق تلبيتها، فإنه يعرِّض نفسه لأن يُستَغلّ أسوأ استغلال من قبل من لا خلاق لهم. امرأة فقدت وليدها، وبحثت عنه، فلم تجده، فذهبت إلى العرَّافين والمنجمين، فأخذوا يستغلون حاجتها الماسة إلى العثور على ابنها، وجهْلَها بكذبهم وتدجيلهم،إنهم يمارسون ضدها كل أنواع الابتزاز، ولولم تكن بحاجة إلى العثور على ابنها، أو لم تكن جاهلة بأمرهم لما جرى لها ذلك. وهذا رجل يعاني من مرض عضال وآلام مبرحة، وقد حار الأطباء في تشخيص علته ووصف الدواء لها، إنه في هذه الحالة يتنقل من طبيب إلى عطار يتاجر بالأعشاب إلى ممارس للطب الشعبي، إلى وصفات طبية يصفها كبار السن.... وهو في كل ذلك يعرِّض نفسه للاستغلال السيئ!. يقول أحدهم: (في كل دقيقة يولد مغفل، ويولد اثنان للمتاجرة به) وهو يعبر عن السُّنة التي أشرنا إليها، والمعنى: أن هناك دائماً من هو مستعد ومتربص، ينتظر الفرصة السانحة كي يجد مغفلاً أو مضطراً أو جاهلاً أو خائفاً، يمارس عدوانه ضده. المشكل أن العولمة تحوِّل الكثير من الكماليات والمرفهات إلى حاجات وضروريات، وذلك من خلال الجهد والمال الهائلين اللذين يبذلان في مجال الدعاية والإعلان، وهذا سيعني بالضرورة تكاثر المحتاجين وتكاثر المستغلين. أضف إلى هذا أن التطور التقني المذهل وتنوع السلع والخدمات على نحو لم يكن أحد في الماضي قادراً على مجرد تخيله ... أدى إلى تقدم أساليب الغش والخداع

وتطورها السريع، والذي يسبق دائماً أدوات مدافعتها ووقاية الناس منها!.
بعض الناس يحاولون استغلال الآخرين من خلال تخويفهم على نحو مباشر، كما يفعل الطبيب الذي انخفضت درجة أخلاقه واستقامته حين يقول لمريضه: إن لم تقبل بإجراء عملية جراحية سريعة، فإن حياتك ستكون في خطر؛ مع أن الطبيب لا يعتقد أبداً بصحة ما يقوله. وأحياناً يكون تخويف الآخرين على نحو غير مباشر وذلك من خلال وضع النظم الصارمة، ومن خلال تقديم خدمات لا يحتاجها الناس، كما أن ذلك يكون أحياناً من خلال طابع الفخامة الذي يضفونه على بعض الأشياء، وتجد كثيراً من هذه في الفنادق ذات (الخمس نجوم)، حيث ترى الناس يدفعون أجوراً مبالغاً فيها بسبب الرهبة التي يشعرون بها حين يدخلون تلك الفنادق!

● كيف نتعامل مع هذه السُّنة؟

١- يجب أن نسلِّم أنه سيظل في الناس من يمارس الخداع والاستغلال: كما أنه سيظل فيهم أيضاً من يُستَغَّل ويُخدَع.

٢- علينا أن نعامل الناس بحذر، وعلينا أن نستشير أهل الخبرة ونتوسع في الاستشارة، كي نتمكن من المقارنة، ونتخذ القرار الصحيح.

٣- تخطيط الحياة على نحو جيد، والنظر الدائم إلى المستقبل بوعي وحرص وفهم، يقلل بإذن الله؛ -تعالى- من الحالات الطارئة التي تُربكنا، وتجعلنا في حاجة إلى المساعدة العاجلة.

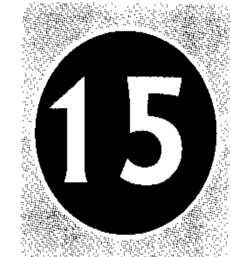
٤- العلم الجيد هو المصباح الذي نرى في ضوئه ألاعيب المستغلين والخداعين، وكلما عرفنا أكثر كان تعرضنا للخديعة والاستغلال أقل؛ والله المستعان.



هي...
هكذا

15

إرادات الناس...
محور الفروقات بينهم



إرادات الناس محور الفروقات بينهم

كل إنجاز من إنجازاتنا، وكل موقف من مواقف التأبي والممانعة، يحتاج إلى شيئين: الإرادة والقدرة، وهذه سنة من سنن الله -تعالى- في الخلق. وإن الناس يتوقون دائماً إلى التعرف إلى مكامن قوتهم ومصادر ضعفهم لأن ذلك أحد شروط الارتقاء والتقدم الذاتي.

● ما الذي نعنيه بالإرادة؟ وما الذي نعنيه بالقدرة؟

إن الإرادة تلك المشيئة العازمة والجازمة، والمعبِّرة عن رغبة شديدة في القيام بعمل من الأعمال. وتتجه الإرادة إلى الكف والامتناع أيضاً، فيستجيب لها السلوك. وعلامة توفر الإرادة الحقيقية الأخذ بالأسباب

والعمل الحثيث من أجل المستقبل، وحين تكون الرغبة ضعيفة، أو يكون المتوفر هو نوع من الأحلام أو الأمنيات، فإن الناس يعبرون عنه بـ(الإرادة) وليس ذلك في الحقيقة إرادة، وهذا ما وضّحه الله -تعالى- من شأن المنافقين حين قال: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[٣٤] أي لو أحبوا الخروج معك بصدق ورغبة قوية لتهيؤوا وتزودوا بما يحتاجه المجاهد في سفره من المركب والزاد والسلاح.

أما القدرة، فهي الطاقة والقوة على فعل الشيء والتمكن منه، كما أنها تعني التمكن من الامتناع من الأمور التي نرغب في الامتناع عنها. وقد جرت عادة الناس أنهم يعبرون عن عدم توفر الإرادة بعدم توفر القدرة في كثير من الفضائل والواجبات، وذلك لأنهم يستحون من قول: لا نريد، حيث إن نفي الإرادة يحمّلهم المسئولية الأدبية والقانونية أما نفي القدرة فيتضمن الإحالة على شيء خارج الوسع والتكليف، وهذا واضح جداً في مئات بل ألوف الأمثلة والتطبيقات، وعلى سبيل المثال، فإن العرب يعلنون منذ عقود أنهم عاجزون عن تحرير أراضيهم من قبضة اليهود، وما ذلك إلا لأنهم لا يجدون أي سند منطقي أو أخلاقي للقول: إننا لا نريد تحرير أراضينا، لكن الذي يريد شيئاً على نحو جازم يحشد له إمكاناته وطاقاته كما يفعل الطالب ليلة الامتحان، وكما يفعل التاجر حين تلوح له فرصة ذهبية لعقد صفقة ممتازة... وبما أن هذا لا يحدث، فهذا يعني أن مشكلتنا مع اليهود هي في الأصل مسألة إرادة ومسألة ترتيب للأولويات، وليست مسألة قدرات و إمكانات. إذا كان من سنن الله -تعالى- في الخلق أن العمل حتى يتم إنجازه فإنه يحتاج إلى إرادة وقدرة، فإن من

٣٤ - سورة التوبة: ٤٦.

سننه -سبحانه- في خلقه أيضاً أن توفر الإرادة أهم بكثير من توفر القدرة، وذلك لأن الإرادة حين تتوفر، فإن توفير القدرات والإمكانات يصبح في معظم الأحيان مسألة وقت، وإن قصص نجاح معظم العباقرة والأعمال والمشروعات والمعارك الكبرى ... إن قصص كل ذلك تؤكد هذه الحقيقة الساطعة. إن القدرات منها ما هو معنوي مثل الإمكانات الذهنية، ومنها ما هو مادي مثل قدرة البدن ومثل المال، لكن الإرادات لا تكون إلا معنوية، ولهذا فإن إدراك النقص الذي يعتريها يكون أضعف، ونحن حين نأتي إلى معالجة مشكلة نتجه إلى نقص الإمكانات لأنه أسهل من معالجة القصور الروحي والنفسي الذي قد يكون موجوداً لدى من يعالج تلك المشكلة.

إن قدراتنا تتحدى فعلاً إرادتنا، كما يتحدى القماشُ الخياطَ كي يجعل منه ثوباً جميلاً، وكما تتحدى الأرضُ الخصبة الفلاحَ كي يزرعها ويستخرج خيراتها..، ومهما كانت عزائمنا ماضية، فإننا سنظل مقصرين في استثمار إمكاناتنا على الوجه الأكمل، وهذا أيضاً من سنن الله -تعالى- في الخلق!.

انطلاقاً من كل هذا نقول إن الذي يقرر مصير الكثير من الأعمال هو ذلك القصور في الإرادة والمشيئة، وليس القصور في القدرة والإمكانية، زيد وعمرو كل منهما قادر على أن يتصدق كل يوم بمبلغ زهيد من المال، وأن يقرأ كل يوم ساعة، وأن يذهب إلى المسجد للصلاة جماعةً، وأن يقرأ خمس صفحات من كتاب الله .... كل منهما قادرفعلاً على ذلك، لكن زيداً وحده هو الذي يفعل ذلك دون عمرو، لهذا فإن مشكلة عمرو هي في الإرادة، وهذا ما لا يريد عمرو -وأشباه عمرو كثيرون جداً- الاعتراف به!.

الآن دعونا نسأل عن أسباب وجود الإرادة الضعيفة، وعن الوسائل التي يمكن أن تساعد على تعزيز إراداتنا؟ ولعلي أشير إلى ذلك بإيجاز عبر المفردات الآتية:

١- للإرادة علاقة جوهرية بالتحضر والتمدن، ففي أوضاع التخلف تكون قوة الإرادة عبارة عن سمة فردية لبعض الناس، أما عامة الناس فتكون إراداتهم ما بين الضعيفة والمتوسطة، أما في المجتمعات المتحضرة فإن الوضع يختلف بسبب تنظيم الحياة وتنظيم قطاع الأعمال، كما نشاهده اليوم حيث؛ إن على كل أب أن يجد طريقة لإيصال أولاده إلى المدارس وإرجاعهم منها، كما أن عليه أن يذهب إلى عمله في وقت محدد، وعليه أن يبرمج أوقات راحته ... وهذا لا يتوفر في المجتمعات البدوية والريفية، حيث يكون تنفيذ كثير من الأمور اختيارياً أو غير مؤقت بتوقيت. لا يعني هذا أن جميع سكان المدن ذوو إرادات قوية، بل يعني أن مستوى قوة الإرادة لديهم أعلى، وإلا فإن المدينة نفسها تُوجِد نوعاً من الإدمان على بعض الأشياء، مما يضعف إرادة كثير من الناس تجاهها.

٢- ضعف الثقة بالنفس سبب رئيس بين أسباب ضعف الإرادة، لأن الذي يعتقد أنه غير مؤهل لأن يكون الأول على زملائه في العمل أو الأول في سباق للجري -مثلاً- لن يجد أي حافز للتفكير في هذا الأمر، أي أن ضعف الثقة بالنفس يجعل المرء يتجه نحو العاجزين أو الباحثين عن مكان في المؤخرة! ومن هنا يمكن القول: إن الأم حين تقول لابنها: إنك لا تستطيع القيام بهذا دعه لغيرك، وإن الأب حين يقول لابنته: ليس هناك أمل في أن تحفظي جزءاً من القرآن الكريم خلال شهر رمضان... إنهما يؤصلان بذلك لضعف الثقة بالنفس لدى الأبناء والبنات، وكان المطلوب منهما هو الحث والتشجيع والتحفيز. ومن وجه آخر فإن الثقة بالنفس تتكون لدى الإنسان، وتتعزز عبر النجاحات التي يسجلها في حياته، وعبر أشكال التفوق على الأقران والمنافسين، وهكذا فلا بد للمرء حتى يثق بنفسه من أن يقوم بشيء ما على نحو ممتاز.

٣- هناك وضعيات سيئة أو غير ملائمة تكون إرادتنا فيها ضعيفة، وتلك الوضعيات حين تأخذ صفة الديمومة، فإنها ترسخ ضعف الإرادة، وتجعله شيئاً مستمراً، ومن تلك الوضعيات: المرض واعتلال الصحة، حيث إن الوهن الجسمي، يدفعنا إلى الاعتقاد بالعجز عن القيام بكثير من الأمور، كما أن للفوضى نصيبها من ذلك، فالإنسان الفوضوي كثيراً ما يأتي بعد الحدث، وليس قبله، ولهذا فإنه يصادف في طريقه الكثير من التحديات التي لا يعرف كيف سيتعامل معها، مما يوهن عزيمته في نهاية الأمر، ويشوه الصورة الذهنية التي يكونها لنفسه عن نفسه.

٤- حين نجد شخصاً ضعيف الإرادة، وهو يحاول تقويتها وتصليبها، لكنه لا يجد أي تقدم يذكر، فهذا يعني أن هناك معوقات تحول دون ذلك، وهذه المعوقات عديدة في الحقيقة، وقد يكون من أشدها الآتي:

● التعب والإنهاك الشديد، حيث تكون قدرتنا على الحركة والمبادرة ضعيفة، كما أن قدرتنا على مقاومة المغريات والتحديات تكون أيضاً ضعيفة وقاصرة، وهذا يعني تسجيل الكثير من مواقف الفرار والجمود، والتي تنعكس سلباً على كل جهود تقوية الإرادة.

● التصلب الذهني والعناد والمكابرة والإصرار المبالغ فيه على أمر من الأمور، حيث تختل الرؤية الصحيحة للأشياء لدى الشخص العنيد ... مما يعني اتخاذ الكثير من القرارات الخاطئة وبالتالي الكثير من اليأس والإحباط والكثير من ضعف الثقة بالنفس.

● يقف على الضفة المقابلة للعناد التهورُ والاندفاعُ غيرُ المسؤول، وهو في الحقيقة لا يعبر عن شجاعة وجرأة، وإنما يعبر عن ضعف داخلي، ونحن نقول دائماً: إن المتقدم

على الصف كالمتأخر عنه، كل منهما يؤدي إلى اعوجاجه، وهذا هو شأن العناد وشأن الاندفاعية الزائدة.

● ضعف الاهتمام سبب رئيس في ضعف الإرادة، فإذا كان هناك شيء لا يلفت نظري، ولا يحرك اهتماماتي، فكيف ستتجه إرادتي لتحصيله أو التفاعل معه؟ هذا لا يكون.

٥- إذا كان ما قلناه عن الأمور التي تسبب ضعف الإرادة صحيحاً، فسيكون في إمكاننا الحديث عن تقوية الإرداة، ولعلنا نلاحظ في هذا السياق الأمور التالية:

● الاستعانة بالله -تعالى- وطلب المدد منه واللجوء إليه في الشدائد بثقة وصدق؛ والله -سبحانه- كريم رحيم، وحين نلتجئ إليه بصدق نشعر أننا نأوي إلى ركن شديد، وبذلك نتخلص من الكثير من الخوف والقلق.

● النظر في قصص كفاح العظماء والدخول إلى عوالمهم من أجل الاقتباس من أرواحهم والتعلم من تجاربهم الحياتية الغنية والمثيرة.

ممارسة بعض العبادات التي فيها شيء من الصعوبة على النفس، وذلك مثل قيام الليل، والمحافظة على صلاة الجماعة في المسجد والصيام....

● ممارسة رياضة بدنية تحتاج إلى عزيمة وصبر وذلك مثل السباحة والجري.

● الانخراط في الأعمال التطوعية، لأن من طبيعة هذه الأعمال جعلَ الإنسان يندمج في مجموعات من الناس، كما أن من طبيعتها أنها تولِّد لدى صاحبها نوعاً من الرفاهية الروحية، وهذا كله يقوي الإرداة.

● القراءة المنظمة اليومية في كتب جيدة ولكتّاب جيدين، حيث إن من شأن قراءة من هذا النوع أن تبني لدى صاحبها درجة جيدة من رحابة الفكر والمرونة الذهنية،

وهما مطلوبان بقوة للإرادة القوية.

لعلك تلاحظ معي أننا في حديثنا عن هذه السنة قد تحدثنا عن عدد من السنن والطبائع، كما أن في إمكاننا أيضاً أن نلاحظ أن تقوية الإرادة يحتاج إلى إرادة، فهل دخلنا في حلقة مفرغة، أو وقعنا فيما سماه المناطقة (الدور)؟ أظن ذلك!.

وعلى كل حال فإن الأفق ليس مسدوداً إلى هذا الحد، فلنجعل البداية هي الثقة بالله -تعالى- والاستعانة به، ثم لنحاول القيام بالأشياء الجيدة التي نحبها ونسعد بها، فهذا وذاك يشكلان بداية جيدة لامتلاك الإرادة الصلبة؛ والله المستعان.

●●●●

16

الإنسان ابن تربيته

16 الإنسان ابن تربيته

يقرر القرآن الكريم حقيقة في منتهى الوضوح والأهمية، وهي أن الإنسان يأتي إلى هذه الحياة وهو لا يعرف أي شيء، ولكنه في الوقت نفسه مزود بالاستعداد لأن يتعلم كل شيء، يقول الله -تعالى-: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾[٣٧] . في ثقافتنا الموروثة العديد من الأوهام حول تأثير التربية في شخصية الطفل، فهناك من يزعم أن الطفل أشبه بالعجينة بين يديك تستطيع تشكيلها على النحو الذي ترغبه، وهذا ليس بصحيح، والدليل هو أن الأبوين يمارسان

٣٧ سورة النحل: ٧٨.

أسلوباً واحداً في التربية لكن سلوكات أبنائهما ونظراتهم للحياة مختلفة، والآباء والأمهات يشعرون في قرارة أنفسهم أنهم نجحوا في تربية فلان أو فلانة من أولادهم على نحو أفضل بكثير من نجاحهم في تربية بقية أولادهم، **وما ذلك** إلا لأن الطفل ليس مثل العجينة أو قطعة الصلصال. وهناك من يزعم أن الجهود التربوية أقرب إلى أن تكون عقيمة، وأنها مسألة هداية ربانية، ويستدل هذا الفريق من الناس بما يرونه من أولاد صالحين وممتازين تربوا في أسر سيئة، يغلب عليها عدم التدين وسوء الأخلاق، كما يستدلون على ذلك بما يشاهدونه من أولاد سيئين نشأوا بين أبوين صالحين. وهذا أيضاً ليس بصحيح، فالآباء الصالحون قد يربون بطريقة خاطئة، وقد يكون لدى الأبوين صلاح، لكنهما يعجزان عن تكوين أسرة جاذبة للأطفال، فيتأثر أبناؤهم بما يرونه ويسمعونه لدى الأقرباء أو في الشارع من صور وسلوكات سيئة ومشينة، ثم إن الظاهرة التي يشيرون إليها هي إلى الشذوذ أقرب منها إلى الاطراد، فالحقيقة أن معظم الشباب والفتيات يتأثرون تأثراً كبيراً بأسرهم في كل جوانب شخصياتهم ولا شك أن هداية الله -تعالى- للأبناء أساسية، لكن لابد من الأخذ بالأسباب. ومن الأوهام الموروثة في شأن تأثير التربية في الأبناء ما يعتقده بعض الناس من ضآلة مساهمة المعرفة والثقافة التربوية الجيدة في صياغة شخصيات الأطفال، ويستدلون على هذا بوجود عدد كبير من الرجال العظماء الذين نشأوا في أسر غير متعلمة، وبوجود عدد كبير من الرجال الأشرار والنساء الشريرات الذين تربوا في رعاية آباء وأمهات يحملون شهادات عليا، ونالوا حظاً من العلم. وهناك من يعتقد العكس حيث يعطون للمعرفة التربوية لدى الأبوين أهمية بالغة في صلاح الأبناء ونجاحهم. ولعلي أضع بعض النقاط على بعض الحروف في هذه المسألة المهمة:

١-إن طبيعة الإنسان طبيعة مؤجَّلة أو غير منجزَة تمام الإنجاز، بمعنى أن المرء حين يولد يكون قد ورث عن آبائه وأجداده خصائص روحية وعقلية ونفسية ومزاجية محددة، لكنه في الوقت نفسه يملك الكثير من الاستعدادات والقابليات التي تمكّنه من أن يختلف اختلافاً كبيراً عن أشخاص لديهم نفس الموروثات النفسية.... وهذا من رحمة الله تعالى- بالعباد إذ لو كانت الملامح النهائية لشخصية الطفل تولد معه، لكان ذلك شاقاً وقاسياً جداً على الذين ورثوا عن آبائهم وأجدادهم الكسل والخمول والنَزَق وسرعة الانفعال وسوداوية المزاج وضعف السيطرة على الرغبات... لكن مع هذه الرحمة هناك شيء آخر هو (الابتلاء) حيث إنه ما دام هناك إمكانية لتأسيس شخصيات الأبناء على نحو معين، فهناك إذن تكليف بحسن الرعاية والتربية والتثقيف، وذلك التكليف يحمل في طياته معنى الامتحان.

٢-حين يولد الإنسان فإنه فعلاً لا يملك أي مقوم أساسي من مقومات الإنسانية، فهو لا يملك اللغة ولا المشاعر ولا معايير الصواب والخطأ، كما أنه لا يعرف ما هو نافع ولا ما هو ضار، كما لا يعرف كيف يفرِّق بين اللائق وغير اللائق وبين الآمن والخطر... وعليه أن يكتسب كل ذلك من خلال التربية، ولهذا قالوا: إن ولد إنسان لا يكون إنساناً إلا إذا رباه إنسان. وإذا تأملنا في الفتيان الذين يتصرفون تصرفات مهذبة وناعمة، فإننا سنجد أنهم نشؤوا في أسر تقدِّر هذا المعنى، وتتمثله في سلوكها، وأيضاً لو تأملنا في سلوكيات الفتيان الغلاظ المتوحشين، أو فاقدي اللباقة، فإننا سنجد أنهم نشؤوا في أسر متوحشة وبعيدة عن الكياسة والرقة، وكما نقول دائماً فإن لكل قاعدة شواذها.

٣-إن الله -سبحانه- هيَّأ الإنسان لأنواع من الارتقاء لم يهيئ لها الحيوان، ولهذا فإن فترة طفولة الإنسان طويلة نسبياً، وعلى سبيل المثال فإن طفولة الإنسان تزيد

على (٢٠٪) من عمره على حين أن طفولة (القط) الذي يعيش وسطياً في حدود سبع سنوات هي في حدود ثلاثة أشهر أي نحو (٤٪) من عمره، وهذا كله من أجل إتاحة الفرصة للإنسان كي يستكمل طبيعته من خلال التربية والتعليم والتدريب، وكلما ارتقى الإنسان في سُلَّم الحضارة زادت المدة المطلوبة لتهيئته للحياة، ونحن نلاحظ اليوم أن الشاب حتى يصبح مهيأ للانخراط الممتاز في سوق العمل يحتاج إلى سنوات كثيرة من الإعداد قد تستغرق نحوا من (٤٠٪) من عمره، كما هو الشأن في الطبيب الذي يود إكمال تخصصه قبل ممارسة المهنة. إن السنوات الست الأولى حاسمة جداً في تنشئة الإنسان حيث تُرسَم فيها كل الخطوط العميقة في شخصيته، والسنة الثانية من عمره هي بمثابة ولادة ثانية.

٤- سيظل للمعرفة التربوية أثر مهم في تنشئة الأبناء، والمعرفة التي كانت صالحة لتوجيه التربية قبل قرن لم يعد كثير منها صالحاً اليوم بسبب تغير الظروف والمعطيات وبسبب ما تم اكتشافه على صعيد الطبيعة البشرية، مما يستدعي الانفتاح على الأفكار والمعلومات والملاحظات التربوية الجديدة والاستفادة منها على أفضل وجه ممكن، لكن من المهم أن ندرك في هذا السياق أن التربية عملية تفاعلية وأن الطفل لا يتفاعل مع المعلومات التي لدينا، وإنما يتفاعل مع ما لدينا من اتجاهات ومشاعر وسلوكات، وما نتخذه من مواقف، ولهذا فإن ما نحصل عليه من معارف ومعلومات وخبرات تربوية ليس من أجل وعظ الأطفال، ولكن من أجل تقويم سلوكاتنا وتحسين إمكاناتنا في توجيههم وتربيتهم، وهذا هو الذي يفسِّر ما يحدث أحيانا من أن أماً لم تحصل على أكثر من الشهادة المتوسطة تربي أفضل من أم تحمل شهادة الدكتوراة في التربية، وذلك لأن الأطفال لا يتفاعلون مع الشهادات ولكن مع من يحمل الشهادات!.

● هل يعني هذا شيئاً؟

إنه يعني الآتي:

١- كما نكون ستكون تربيتنا، حيث لا نستطيع أن ننشئ جيلاً صالحاً إذا لم نكن نحن أناساً صالحين.

٢- ما دمنا نحن الذين نستكمل طبيعة الطفل، ونصوغ الكثير من التفاصيل في شخصيته، فإن علينا أن نحذر من أن نتخذ التربية وسيلة لتكريس الواقع السيئ ونقل الأمراض الخُلُقية والاجتماعية من جيل إلى جيل عبر سلطاتنا التربوية.

٣- كلما أوغلنا في الحضارة زادت مسؤولياتنا التربوية لأن ما يمكن تعليمه للأولاد وتدريبهم عليه يزيد، ولأن من شأن التقدم الحضاري استدعاء المزيد من الرقي الشخصي والمزيد من اكتساب المعارف والمهارات، وأسأل الله -تعالى- أن يعيننا على ذلك.

●●●●

17

ليس هناك شخص أو شعب هو مجموعة سيئات

17 ليس هناك شخص أو شعب هو مجموعة سيئات

هذه حقيقة من الحقائق الكبرى في حياة البشرية، واستحضارها خلال تعاملنا مع بعضنا يخفف الكثير من التوتر ويلطِّف من الآثار التي يتركها تصادم الأفكار والمصالح والأهواء .... والحقيقة أنه ليس هناك شخص -وهذا ينطبق على كل ما يعد تكراراً للفرد مثل الأمم والشعوب والجماعات والأسر- فيه كل الصفات الجيدة والأخلاق المحمودة، كما أنه ليس هناك شخص يتخذ دائماً في مواقفه من الآخرين القرارات الصائبة. في المقابل ليس هناك شخص - والشعوب والجماعات كذلك- كل ما فيه مكروه وسيِّئ، أي مجموعة من الشرور والنقائص؛ فالله -جلَّ وعلا- فطر الخلائق على

القابلية للخير والشر، وجعل كل شؤون الحياة تمضي وتتوازن على أساس التدافع بين الحق والباطل والصواب والخطأ والمعروف والمنكر، ولهذا فليس هناك حضارة قامت على الباطل المحض، كما أنه ليس هناك حضارة انضبطت بالحق، وخلت من نوازع الشر، وذلك لأن الفرد في كل الأمم والحضارات لديه مزيج من هذا وذاك، والخلاف بين الناس في هذا هو الاختلاف في كثرة الخير والشر؛ ولعلي أوضح هذه السنّة العظيمة في المفردات الآتية:

١-لو تأملنا في أحوال الثقافات العالمية، لوجدنا أن هناك قيما وأخلاقاً كثيرة تشكل أرضية لتلاقي الأمم والشعوب، وذلك مثل الصدق والوفاء وبر الوالدين والصداقة ومقابلة المعروف بمثله والأمانة والإحسان والتعاون والشفقة على الضعيف.... وإن الأمم ترسّخ هذه القيم في نفوس أبنائها من خلال التربية الأسرية والمناهج الدراسية ووسائل الإعلام، ولهذا فإن كل فرد في العالم ينظر إلى هذه الأخلاق والقيم نظرة اهتمام وتقدير، حتى لو كان سلوكه الفعلي يخالف ذلك،لأنها دخلت في تكوينه الذهني والثقافي والروحي والاجتماعي، وبمجرد أن ينظر المرء نظرة تقدير لشيء، فإنه يحاول على نحو عام أن يراعي ذلك الشيء في قوله وفعله؛ وأظن أن هذا واضح.

٢- إن القوانين المعمول بها في العالم الصناعي والعالم النامي، وكذلك العقوبات مبنية على الاعتراف بأن هناك ما هو جائز، وهناك ما هو ممنوع، كما أنها مبنية على أن خصوصيات الناس وممتلكاتهم وحقوقهم الأدبية كلها مكفولة ومصونة، وعلى المواطنين التقيد بذلك ومراعاته، وهذا يشكل حافزاً إضافياً للأسر كي تربي أولادها تربية جيدة، فهي تعرف أن إزهاق أرواح الآخرين والاستيلاء على ممتلكاتهم، ودخول بيوتهم من غير إذنهم وتشويه سمعتهم.... يؤدي بأبنائها إلى دخول السجن

وربما الإعدام، ولهذا فإن جزءاً من تمدن الإنسان يقوم على الخير الكامن في احترام حقوق الآخرين وكبح النفس عن بعض الشرور.

٣- الناس مفطورون على التطلع إلى إثبات وجودهم وتحقيق ذواتهم والحصول على مرتبة اجتماعية مرموقة؛ وإن من الواضح أن بلوغ ذلك يتم بالعديد من الطرق، منها الشعور بالتأنق الروحي والاجتماعي، والذي نشعر به أساساً حين نقوم بأعمال إغاثية وطوعية، لا تستهدف تحقيق مصلحة شخصية، وهذه من الخير الموجود لدى كثير من الناس، وهي تنم عن الاهتمام بالنفس البشرية وضرورة صيانتها وإسعادها، وهذا كله من الفضل والخير.

٤- هناك من النصوص ما يدل على أن شيئاً من الإيجابية وشيئاً من الخير موجود لدى كل إنسان، منها قوله -صلى الله عليه وسلم-: (الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية، خيارهم في الإسلام إذا فقهوا)[٣٨] فقد دل الحديث على أن الناس في الجاهلية كان فيهم من يفضل غيره في الخيرية، وأثنى على حلف الفضول الذي عقد في مكة، وذكر أنه لو دعي إلى مثله لأجاب، لأنه كان عملاً خيراً لما فيه من نصرة المظلوم على الظالم. وروي عنه -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: **(لا يفرك - أي يبغض - مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقا، رضي منها غيره)**[٣٩] وهذا منه -صلى الله عليه وسلم- إيقاظ للوعي، حتى لا يركّز الأزواج النظر على مساوئ زوجاتهن، حيث إن لديهن بعض الأخلاق المحمودة، وهذا في الحقيقة عام، فما من شخص من الناس إلا لديه بعض الخصال المحمودة التي لو بحثنا عنها لوجدناها، والواقع يشهد بذلك.

٣٨- متفق عليه.

٣٩ - رواه مسلم.

٥- قام بعض المثقفين والكتاب المسلمين بإشاعة فكرة مضمونها هي: أن الناس في الغرب لا يملكون أخلاقا أصيلة مجردة عن المصلحة، وزعموا أن الناس هناك يصدقون ويفون بالوعد.... من أجل نجاح تجارتهم وأعمالهم ليس أكثر، وأعتقد أن ما فعله أولئك الكتاب كان جزءاً من الجهود المبذولة لحماية المسلمين من التأثر بالغرب والإعجاب بالحياة الغربية، لكن ذلك لا يلامس الحقيقة، ويجافي القيام لله - تعالى- بالعدل والقسط، وذلك لأن في الحضارة فوائض في السلوك والتعامل يصعب تفسيرها بالمصالح والمنافع الشخصية، ولا يمكن أن تستمر حضارة الغرب ما يزيد على خمسة قرون، وهي قائمة على باطل محض وشر خالص. ومن علماء الحضارة من يقول: إن ما لدى كثير من الغربيين من أخلاق الصدق والأمانة والوفاء والدقة .... نشأ في المجال التجاري، وترسخ في دوائر العمل من أجل كسب الزبائن والإبقاء عليهم، ثم انتقل إلى الحياة الأسرية والعامة لأن من الصعب أن يكون الرجل صادقاً في الصباح وكذاباً في المساء؛ ويبدو لي أن هذا التفسير صحيح.

● هل يعني كل هذا شيئا؟

إنه يعني الآتي:

١- على الواحد منا حتى يرى ما لدى الناس من خير أن لا يجعل نفسه أصلاً، وعلى الباقي أن يكونوا صورة منه، فما وافق مزاجه فهو خير وما خالفه فهو شر، وإنما عليه أن يحكّم المعايير الشرعية والإنسانية العامة.

٢- يمكن لنا أن نرى ما لدى الناس من صفات إذا تجردنا من الأنانية، وتحلينا بخلق الإنصاف، وبذلنا شيئاً من الجهد، حيث إن اكتشاف ما لدى الناس من خير يحتاج

إلى شيء من الإبداع والشفافية، وإلا فإننا قد لا نرى إلا السيئات!.

٣- حين نعامل الناس على أن فيهم شيئاً من الخير، فإنا نحفزهم في الحقيقة على أن يعاملونا ويعاملوا غيرنا انطلاقاً من الخيرية التي نعتقدها فيهم، وحين نعامل الناس على أنهم أشرار، فقد لا نرى فعلاً منهم إلا الشر.

٤- حين نعتقد أن فلاناً من الناس هو كتلة من الشر، فإننا نحرم أنفسنا من الاستفادة منه وتعلُّم بعض ما لديه وهذا جزء من ضريبة المعتقدات الخاطئة، على حين أنني أعتقد أن جزءاً من حلول مشكلات أي أمة، يكون موجوداً عند أعدائها؛ وليس هذا الموضع هو الموضع المناسب لشرح ذلك.

●●●●

18

الضخامة تبعث على الحذر

18 الضخامة تبعث على الحذر

تدل شواهد عديدة وفي مختلف المجالات على أن هناك علاقة طردية أو شبه طردية بين (الحجم) وبين (شدة الحذر) فكلما كان الشيء أو الكتلة أضخم كان أشد حذراً، وأكثر تنبهاً للخطر الذي يمكن أن ينجم من أي جهة بسبب تقصير أو بسبب قرار خاطئ، وعلى العكس من هذا فإن ضآلة الحجم تبعث على نوع من التراخي أو (اللامبالاة). ولا ندري ما السبب العميق الكامن خلف هذه السُّنة؟ هل تتطلب الضخامة المزيد من الحذر لأن لدى الضخم مكاسب كبيرة يخشى أن يخسرها بسبب الغفلة؟ أو لأن الضخامة تتطلب المزيد من التوازن والحسابات المبكرة بسبب صعوبة الحركة؟ أو لأن

الضخامة تبعث على نحو خفي على زيادة الشعور بالمسؤولية التي تتطلب بدورها المزيد من الاحتياط؟. كل هذا وارد، ويمكن أن يصلح سببا للتفسير. عالم الحيوان يمدنا بالأمثلة والشواهد النقية، وسلوكاته أدل على السنن من سلوك الإنسان لأنه يتحرك وفق البرمجة الغريزية، أما الإنسان فإنه يتمتع بطلاقة الروح وبالإرادة الحرة، ولهذا فإن فهم مغازي سلوكه يكون أشد تعقيداً.

● تطبيقات على هذه السُّنة:

١- تدل الدراسات التي أجريت على سلوك الحيوان على أن هناك نوعاً من التناسب الطردي بين حجم حيوانٍ ما ومسافة هروبه: كلما كان الحيوان أكبر كانت المسافة التي يجب أن يحافظ عليها بين نفسه وبين العدو أطول، فالبقر الوحشي -مثلاً- سيهرب حين يكون المعتدي على بعد خمسمائة ياردة، أما سحلية الحائط (أبو بريص) فإنها تهرب حين تكون المسافة بينها وبين المعتدي ستة أقدام. يقول (هادجر): إن المسافة الحرجة للحيوانات التي لديه معلومات عنها تكون دقيقة جداً إلى درجة أنه يمكن قياسها بـ(السنتمترات)! إن الله -سبحانه- فطر الحيوان على هذا من أجل حمايته، ومن الواضح أن كبر حجمه يجعل إمكانات اختبائه من عدوه ضئيلة، ولهذا فإن فرصته الوحيدة تكمن في الهروب المبكر، على حين أن سحلية الحائط أو الفأر أو الصرصور يتمكن بسهول من الحصول على مكان يختبئ فيه، ولهذا فإن مسافة الأمان بينه وبين مهاجمه تكون أقصر.

٢-على مستوى العمل الإسلامي نلاحظ أن التطرف والغلو والاندفاع الأحمق نحو العنف والتخريب يكون في العادة من نصيب الجماعات والمجموعات الصغيرة، لأن

حذرها تجاه ما يمكن أن تتخذه من قرارات خاطئة يكون أقل. أما الجماعات الكبيرة فإنها تكون أقرب إلى الاعتدال بسبب شدة حذرها، إنها تعلم أن قراراً متهوراً واحداً يمكن أن يسبب مشكلات عويصة للألوف من أتباعها ومنسوبيها، ولهذا فإن قراراتها تُتَّخذ ببطء واحتياط وحذر شديد. ويؤكد هذا أن كثيراً من المجموعات التي تمارس العنف داخل المجتمع الإسلامي كانت قد انشقت عن جماعات كبيرة، وسبب انشقاقها هو عدم تحمل درجة الاعتدال والحذر لدى تلك الجماعات، والذي يُفسَّر من قِبَلها دائماً على أنه نوع من الخيانة للدين والمبدأ، ونوع من الجبن والخور المتولد من حب الدنيا والحرص على المصالح. والمفارقة المزعجة في هذه المسألة أن هناك من يعمل دون هوادة على تفتيت الجماعات الكبيرة وإحداث أكبر عدد من الانشقاقات فيها، وهذا مجافٍ للحكمة التي نستفيدها من وعي هذه السنة، حيث إن تحول الجماعة الكبيرة إلى مجموعات صغيرة يعني جعلها أقل حذرا ويدفعها في طريق الغلو والعنف، وهذا لا يصب في مصلحة أحد. ومن وجهٍ آخر فإن على الأحزاب والجماعات الكبيرة أن تنتبه إلى أن كبر حجمها والذي يدفعها إلى المزيد من الحذر يمكن أن يكون وبالاً عليها وسبباً لجمودها وتحللها من الداخل بسبب صعوبة اتخاذ القرارات فيها، فهي بسبب ضخامتها تحتاج إلى مراعاة الكثير من وجهات النظر المختلفة لدى أعضائها، وهذا يجعل حساباتها دائماً معقدة، وأحيانا غير مفهومة ولا معقولة. هناك جماعات لم تستطع تغيير قياداتها وإحلال قيادات نشطة مكانها، وهناك جماعات مضى على تحدثها بأخطائها عقود عديدة دون أن تتمكن من معالجة أي منها، وكل ذلك بسبب ضخامتها وشدة حذرها!.

٣- من الواضح أن رب الأسرة يكون أشد حذراً في قراراته وتصرفاته من الفرد الذي

ليس مسئولاً عن أحد، وإن شعوره بالمسؤولية عن مصير أسرته وعن رفاهيتها وأمنها هو الذي يحمله على ذلك، وقد ورد في الحديث الصحيح ما يشير إلى ذلك، حيث قال -صلى الله عليه وسلم-: ((الولد مبخلة، مجبنة، مجهلة، محزنة))[٤٠] أي أن الرجل يريد أن يتصدق، أو يخرج للجهاد، أو يذهب إلى طلب العلم، فيمنعه من ذلك، ويُقعده عنه حبُّه لولده وخوفه عليه وحرصه على تأمين معيشته. إنه الحذر من عواقب الإقدام على أمر يلحق الضرر بأولاده. وكلما زاد عدد الأولاد عظم الشعور بالمسؤولية، وعظم معه الحذر من الإنفاق في الخير، ومن المخاطرة بالنفس وطلب المعالي، وهذه سنة واضحة تستدعي الكثير من التأمل والكثير من الشفافية. وليس من المستبعد ونحن نأخذ العبرة من منطوق الحديث ومفهوم هذه السنة تفسير من يقول: إن قلة المؤسسات الخيرية والمبادرات ذات النفع العام في العالم الإسلامي تعود إلى انصراف ذهن الناس للإنفاق على أسرهم ذات الأعداد الكبيرة ، وذلك واضح إذا ما قارناه بما لدى العالم الصناعي، حيث الأسر الصغيرة جداً، وحيث الأموال الطائلة التي تنفق على التبشير والصحة ومساعدة الفقراء والمرضى وعلى البحث العلمي ... وهذا إن صح فإنه يكون محكوماً بسنة أخرى، هي: (عدم استطاعة الإنسان الحصول على كل شيء)، حيث لا يستطيع الناس أن يتمتعوا بالعيش وسط عدد كبير من الأولاد، وأن يتمتعوا بالرفاهية الروحية التي توفرها الصدقة وأعمال البرِّ عامة.

٤- نلاحظ ارتباط الضخامة بالحذر في المجال التجاري حيث نجد أن الشركات العملاقة المملوكة لألوف المساهمين تتحرك دائماً في نطاق قليل المخاطرة، وإن حقق

٤٠- صحيح الجامع برقم١٩٩٠.

تحركها القليل من الربح، فالوضعية العامة لها لا تسمح أبداً بالدخول في مغامرات ومخاطرات كبيرة بسبب كثرة الرقباء على إدارتها وكثرة المحذّرين لها من التهور ... وليس الشأن كذلك في الأعمال الفردية والمؤسسات الصغيرة، إنها بسبب ضآلة حجمها تكون أكثر جرأة في اتخاذ القرارات، ولذلك، فإنها تحقق أحياناً مكاسب كبيرة جداً، وأحياناً تمنى بخسائر فادحة.

٥- حين يكون هناك شخص يحظى باحترام وتقدير واسعين، فإنه يتصرف كما تتصرف المجموعة الضخمة، وكما يتصرف رب الأسرة.... إنه يصون سمعته وكرامته من خلال الحذر من أي موقف أو تصرف يمكن أن يسيء إليهما، أو يجعله في موقف اتهام، وهذا الحذر لا نجده لدى الأشخاص العاديين من الناس. وحين يكون المرء شيخاً لقبيلة أو عشيرة فإن من الصفات الأساسية في شخصيته الحكمة والحلم والأناة، وهي صفات تساعد مجتمعةً على أن يتريث في اتخاذ أي قرار أو إصدار أي حكم يمكن أن يحلق الضرر بقبيلته، أي أنه يكون حذِراً على نحو ينسجم مع عظم المسؤولية التي يتحملها عن سلامة قبيلته ورعايتها.

● كيف نتعامل مع هذه السنة؟

١- الضخامة أو العملقة منها ما يكون شيئاً جبرياً لا حيلة لأحد تجاهه، إذ ما الذي في إمكان الفيل أن يصنعه تجاه ضخامته؟ وما الذي يمكن أن يفعله رجل ناجح جداً حيال شهرته وحسن سمعته لدى الناس؟

ومنها ما يكون اختيارياً، يقوم الناس بتكوينه، كما هو الشأن في الشركات والجماعات.

٢- لا أعتقد أن (الضخامة) تشكل ظاهرة صحية في كثير من الأحيان، ولهذا فإذا كان

هناك سبيل لعدم حدوثها، فينبغي أن نسلكه. وأعتقد أن الله -عز وجل- لم يفطر الإنسان على الارتياح للتعامل مع الأشياء الضخمة والكبيرة، ولهذا فإنه على مدار التاريخ كان - و لا يزال - يحاول أن يتخلص من العملقة مهما كان ذلك مكلفاً، ومن أهم إنجازاته على هذا الصعيد إنشاء العلوم وتنظيم المعارف، فقد كانت المعرفة كلاً واحداً، وبسبب تضخمها ووفرتها صار تعامل الوعي البشري معها شاقاً بل مستحيلاً، فقام بتوزيعها على عدد كبير من المساقات: الطب والهندسة والتاريخ والفلك....، وهو مستمر في ذلك دون توقف، فاختصاص (القلبية) انقسم إلى عدد من التخصصات، ويمكن أن تقول مثل هذا في كل العلوم والتخصصات فهي دائمة التشظي والتفتت. ومن الملاحظ اليوم أن الشركات والجامعات وكثيراً من المؤسسات والهيئات تسلك المسلك نفسه من خلال إيجاد الأقسام والاختصاصات والفروع والدوائر ... وإذا كان هذا التحليل صحيحاً فإن من غير المستحب لأي جماعة أو هيئة إسلامية أن تسمح لنفسها بالتضخم، لأن ذلك يجعل حركتها ثقيلة، كما يجعل السيطرة عليها ضعيفة، كما أنها تكون دائماً مهددة بالارتباك الذاتي.... ، من المؤسف في هذا الصدد أن وعينا مفتون دائم بالكم، ولا ندرك أن الكمَّ على حساب الكيف، كما لا نعرف الثمن الباهظ الذي ندفعه بسبب تراكم الكمِّ إلى حدود غير معقولة.

٣- إذا كانت الضخامة شيئاً لابد منه في بعض الأحيان، فهذا يعني أن ننسجم مع السُّنَّة التي نشرحها، ونكون حذرين على نحو يتناسب مع الضخامة الموجودة، لكن علينا أن ننتبه إلى أننا في بعض الأحيان نبالغ في الحذر إلى درجة الجمود والشلل، وبذلك تصبح العملقة والتي نظنها ميزة شيئاً سلبياً ومعوقاً، ومن المؤسف أن إدراك ذلك لن يكون إلا نسبياً وتقديرياً، والخطأ فيه دائماً وارد؛ والله المستعان.



19

لكل شيء طاقة على التحمل

19 لكل شيء طاقة على التحمل

هذه سنة من سنن الله -تعالى- في خلقه، وفي كل مجال من مجالات الحياة، والفكرة الجوهرية هنا هي أن كل مخلوقات الله -تعالى- محدودة في كل شيء، والمحدود لا يشتمل على المطلق أو (اللانهائي) فالكون على اتساعه، له في النهاية حدود، ونحن دائماً نقول: (اللانهائي) لا منطقي. إن الذي نريده من وراء توضيح هذه السُّنَّة هو زيادة الوعي بشؤوننا الشخصية والاجتماعية واختيار التصرف المناسب.

● وهذه بعض التطبيقات لهذه السنّة:

١- حديد التسليح الذي يُسْتخدم في حمل أسقف المباني يقدم

لنا نموذجاً محسوساً في القدرة على التحمل، فالمهندسون يعرفون ما يتحمله قضيب بغلظ معين ومواصفات محددة، ولهذا فإنهم يراعون قدرته على ذلك أثناء تصميم المباني وتنفيذها، وإذا حدث تجاهل لتلك القدرة فإن الحديد يعلن انتهاء دوره، من خلال الانحناء، فينهار وينتهي كلُّ شيء. والسبب الكامن وراء ذلك التجاهل هو الغش أو الجهل.

٢- كما أشرت من قبل فإن كل واحد من الناس يحمل في نفسه شيئاً من القيم والمبادئ التي توجِّه سلوكه، وتلك القيم.... تولِّد لديه نوراً داخلياً، نسميه تارة بـ (الضمير) وتارة بـ (الوجدان) وتارة بـ (الوازع الداخلي)، وهذا النور يعمل على حثنا على فعل الأشياء الجيدة، ويُبدي قلقه وانزعاجه حين نهمّ بفعل شيء سيِّئ، أو نقع في خطأ من الأخطاء. هذا النور أو الضمير له طاقة محدودة على الردع والزجر وعلى التحفيز والحض، وعلى سبيل المثال فإن الإنسان حين يواجه مغريات جنسية شديدة، وتطول فترة تلك المغريات على نحو ما يواجهه الشاب العزب الذي يعمل في وسط نسائي، يسوده التهتك وعدم الاحتشام -فإن قدرة الرادع الداخلي لديه تكون ضعيفة، ولهذا فإن كثيراً من الشباب المسلم، لا يصمد في وجه تلك المغريات، ويستجيب إليها. ونجد كذلك أن الذين يعيشون في وسط لا يقيم أي وزن للصلاة أو لصلاة الجماعة في المسجد، يغلب عليهم التساهل بذلك، تأثراً بالبيئة التي يقيمون فيها. في بعض البلدان انتشر الفساد المالي في قطاع المقاولات، فلا يحصل المقاول على عقد إلا إذا دفع رشوة لمن سوف يمنحه ذلك العقد، وفي هذه الحال يشعر من يعمل في مجال المقاولات أن المسألة أصبحت مسألة (قطع أرزاق) وضرورات معيشية، وهكذا فإننا نجد من يصلي خلف الإمام،وهو يقدِّم الرشوة حتى يحصل على عقد لا يستحقه، وهو يقول: إن السوق هكذا، ولا حول له ولا طول!.

٣- القرابة التي تجمع الأرحام ترتِّب عليهم حقوقاً مادية ومعنوية، وهذه الحقوق، بعضها محدد شرعاً، وبعضها متروك للعرف، والعرف يختلف من بلد إلى بلد، لذلك فإن ما يتوقعه المرء من أقربائه من معونة ومواساة ومناصرة وتحمل ... يكون غامضاً جداً، وكثيراً ما تكون التوقعات كبيرة، فإذا أخلفها القريب عتب عليه أقرباؤه، وجفوه، وربما قاطعوه، ومهما يكن الأمر فإن القرابة ككل الأشياء لها طاقة على تحمل التكاليف والطلبات والتوقعات وسأضرب مثالاً للحرج الذي تسببه القرابات: لو كان لأحدنا أخ يسكن في حيه وطلب منه أن يوصله إلى المستشفى الساعة الثانية ليلاً، فإنه سيقوم بذلك بكل شفقة واندفاع وطيب نفس، لكن ماذا لو تكرر ذلك يومياً، وكان ذلك يعني الجلوس في المستشفى ثلاث أو أربع ساعات؟ الذي سيحدث حينئذٍ هو الضيق الشديد والبحث عن حلٍّ، وذلك الحل قد يكون توظيف سائق، وقد يكون التناوب مع باقي الإخوة، ويمكن أن يصل إلى حد الرحيل من الحي، وكل ذلك لأن المريض حمَّل قرابته لأخيه أعباءً لا تقوى على حملها.

٤- الزكوات والصدقات وكل أعمال الخير الاقتصادية والمالية مع دورها البالغ الأهمية في تخفيف ضغوط الفقر والحاجة... تظل طاقتها محدودة في القضاء على الفقر وتحسين المستوى المعيشي للناس، فلو فرضنا أن كل الناس قد أخرجوا زكواتهم، و(٣٠٪) منهم تصدقوا، وساهموا في دعم الصحة والتعليم... فإن هذا لن يؤدي إلى القضاء على الفقر والحاجة - على عكس ما يظن بعض الناس - وذلك لأن العمل الخيري هو عبارة عن جهد استدراكي على قصور النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولن يستطيع أن يسدَّ مسد أيٍّ منها، لأن طاقته على قضاء حاجات الناس ستظل محدودة. وماذا يمكن للصدقات أن تفعل في ظل وضع اقتصادي متدهور، تبلغ فيه نسبة الباطلين عن العمل (٧٠٪)؟. وماذا يمكن لأعمال الخير أن تعمل في ظل نظام إداري فاسد، لا

يصل فيه الناس إلى حقوقهم، ولا يوجد رادع يردعهم عن أخذ ما ليس لهم؟.

● ما الذي يعنيه كل هذا؟

إنه يعني الآتي:

١- نحن نحتاج فعلاً أن نفهم الأمور بشكل أعمق، وأن نتلمس مسألة (المحدودية) في الأشياء، كما نتلمس طاقة كل منها على التحمل، وهذا مبدأ كوني وشرعي، والله -تعالى- يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٤١]

٢- الاعتدال والتوازن في الحياة يساعدان مساعدة كبيرة في مسألة عدم تحميل الأشياء فوق طاقتها، فنحن -مثلاً- نطالب الأقرباء بالتعاطف والتحمل، لكن في الوقت نفسه نطالبهم بأن يقدّروا ظروف بعضهم بعضاً، وأن يحاول كل واحد منهم حل مشكلاته الشخصية مع أقل قدر من الاحتياج إلى أقربائه. ونحن في مسألة الوجدان والضمير - على النحو الذي أشرنا إليه - مطالبون دولاً وشعوباً بأن نعمل على توفير بيئة صالحة ونقية تساعد أهل الاستقامة ومحبيها على أن يكونوا أفضل حالاً، كما أنها تضيّق الخناق على الشر وأهله، وتوفر قدراً من الحرية المطلوبة لانتعاش الضمير والشعور بالمسؤولية.

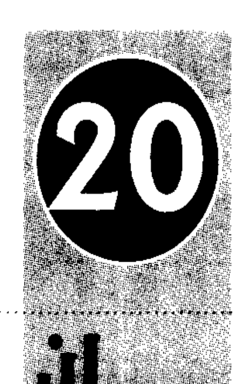
٣- نحن نلاحظ من التطبيقات التي ذكرناها أن الشيء الذي نحمّله فوق طاقته، في كثير من الأحيان نخسره، لأننا نعطّله عن أداء دوره ووظائفه، وإن حديد التسليح يقدم لنا مرة أخرى نموذجاً واضحاً في مسألة الخسران، وقل مثل هذا في القرابة والضمير والتربية وعناصر النجاح وأشياء لا تكاد تحصى... وهذا يعني أن تجاهل محدودية الأشياء في تحمل الضغوط يؤدي إلى الخسارة، ويُلْحق بنا أفدح الأضرار، ولهذا فإن مزيداً من الفهم يعني أن نحمي أنفسنا من كثير من الخسائر؛ والله مولانا.

●●●●

٤١- سورة البقرة: ٢٨٦.

20

ثقافة السلعة تهزم ثقافة الروح



ثقافة السلعة تهزم ثقافة الروح

إن الإنسان روح وجسد، ونصف ثقافته يتصل بالروح والمعنى والأمور الاعتبارية وكل الأشياء غير الملموسة، أما النصف الآخر فيتصل بالجسد وحاجاته المادية المختلفة. ويمكن القول: إن بين ثقافة الروح وثقافة الجسد أو السلعة نوعاً من الصراع على الوجود، لكن يبدو أن ثقافة السلعة تدفع بثقافة الروح في اتجاه التآكل على المستوى الفردي وعلى المستوى الاجتماعي. ومن الممكن لثقافة الروح أن تصمد على نحو جزئي أمام ثقافة الجسد أو السلعة حين يقوم الواحد منا بمجاهدة نفسه في ذات الله -تعالى- وحين يبذل جهداً مضاعفاً من أجل مقاومة التيار الجارف. **ومن الملاحظ فعلاً** أن المحسوس والملموس

يتحدث بصوت أقوى من المعنوي والاعتباري، ولهذا فإن استجابة الناس للمادة وما يتصل بها أقوى بكثير من استجابتهم لصوت الروح والتداعيات الاعتبارية، وهذا شيء يدعو إلى الأسف، لكنه في الوقت نفسه يشكّل علامة كبرى على خارطة ابتلاء الله -تعالى- لعباده في هذه الحياة.

تتكون ثقافة الروح من جملة من المعاني النبيلة مثل الإخلاص والحب والوفاء والصداقة والحنين إلى الماضي والتعاطف والقدرة على التضحية من أجل الآخرين ومن أجل الكرامة.... أما ثقافة السلعة فتتصل بمعاني التملك والاستحواذ والانتفاع والترفه والمتاجرة والصيانة والاستهلاك والنفوذ ... ويمكن أن تلاحظ أن ثقافة الروح تتصل بالرحمة والعطاء، وثقافة السلعة تتصل بالقوة والاستحواذ. في الأحياء الفقيرة يحتك الناس ببعضهم على نحو أكبر بكثير مما يحدث في الأحياء الغنية بسبب ضيق مساحات البيوت والأزقة والحارات، وبسبب التبادل الخدمي والسلعي الذي يجد الفقراء أنفسهم منهمكين فيه بسبب نقص المال، وهذا الاحتكاك وهذا التبادل النشط يُنعش ثقافة الروح، ويمدها بالحيوية والقدرة على الاستمرار. أما الأحياء التي يسكنها الأغنياء فإنها تكون فسيحة، وأسوار المنازل فيها عالية، ولدى الناس فيها نوع من الاكتفاء الذاتي، وهذا كله يدفع بهم نحو الانكفاء على أنفسهم، ولا سيما في هذه الأيام حيث توفّر التقنية للناس في البيوت كل أشكال المتعة والترفيه، وهذا كله يُضعف ثقافة الروح على الصعيد الاجتماعي، ويستدعي ضمورها على الصعيد الفردي. مع التقدم الحضاري تكثر الأشياء، وتكثر السلع، ويصبح الناس مشغولين أكثر فأكثر بتوفير المال الذي يمتلكون عن طريقه الأشياءَ التي يحتاجون إليها، كما ترتقي الخدمات التي يمكن تقديمها، وهذا يزيد من استغناء الناس عن بعضهم بعضاً.

ونحن نعرف كيف كان الناس في القرى والبوادي يفتحون بيوتهم للغريب وابن السبيل ليأكل على موائدهم، وينام عندهم أياماً عديدة، لكن هذا انتهى بوجود المطاعم والفنادق، وانتهى معه سيل من علاقات المودة والوفاء والذكريات الجميلة.

تتراجع ثقافة الروح على نحو لم يسبق له مثيل بسبب عمليات العولمة المتصاعدة، وهي لا تروِّج للمعاني والقيم النبيلة، وإنما تروِّج للسلع، وتفتح وعي الناس على معاني القوة والمنافسة والاستيلاء على أكبر قدر ممكن من الأشياء. ثقافة الأشياء تتصل بالعالمية وبالحراك التجاري. أما ثقافة الروح فذات طابع محلي، وهي تنزع إلى الخاص والشخصي. لكن هل تستسلم ثقافة الروح، أو هل يصح أن تستسلم أمام ثقافة السلعة؟.

لا شيء يستسلم للفناء بسهولة، فالله -عز وجل- فطر الأشياء على الممانعة من أجل الاستمرار في الوجود، وثقافة الروح تحاول أن تحمي نفسها من الاندثار عن طريق التحول من كونها ثقافة (روح) لتصبح ثقافة (هُويَّة) وبذلك تحرِّض المجتمع على تبنيها والدفاع عنها بوصفها جزءاً من وجوده المعنوي. ولا يخفى أن الناس يشعرون أنهم صاروا أكثر دنيوية، وهم يرون في الزهاد والأوفياء وفاعلي الخير حراساً على الهُويَّة ومقاومين للعدوان الواسع الذي تقوم به الثقافة الغربية الطامحة.

● كيف يكون التعامل مع هذه السنة؟

١-إذا كان ما هو فطري وطبيعي شيئاً جيداً، فينبغي أن يستمر ولو عن طريق التنظيم المصطَنع، كما يحدث في أحياء الأغنياء اليوم من لقاءات دورية أسبوعية أو شهرية.

٢-يمكن لثقافة الروح أن تنتعش كثيراً من خلال تأسيس الجمعيات الخيرية وإطلاق

البرامج والمشروعات الإغاثية واللاربحية، إنها فعلاً تغذي معاني التعاطف الإيجابي والتعاون وكل المشاعر المشتركة.

٣- **علينا أن لا نسرف في تكديس الأشياء في بيوتنا، لأنها حين تكثر توجد لها مجالاً حيوياً في عقولنا ونفوسنا، وتضغط بالتالي على أرواحنا.** وسنكون من أهل الحكمة إذا عملنا بالمقولة الآتية: (**استغناؤك عن الشيء خير من استغنائك به**). ولنتذكر على سبيل الاتعاظ قول الله -تعالى-: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾[٤٢]

●●●●

٤٢ سورة آل عمران: ١٤،١٥.

21

لا ازدهار من غير استقرار

21 لا ازدهار من غير استقرار

إن الناس مفطورون على حب الخير، ومفطورون على حب التقدم والارتقاء وتحسين ظروفهم المعيشية والحصول على أكثر مما في أيديهم، لكن ذلك لا يأتي في الدرجة الأولى، وإنما الذي يأتي فيها سلامة النفوس والمحافظة على المكتسبات الناجزة، وهذا طبيعي لأن العاقل يحاول زيادة رأسماله عن طريق استثماره مع أدنى قدر من المخاطرة به، فإذا زادت درجة المخاطرة فإن الناس لا يفكرون في الزيادة حينئذٍ، وإنما يهجسون في كيفية الحفاظ على رأس المال والنجاة من الخسارة. **فما الذي نعنيه بالازدهار؟ وما متطلباته من الاستقرار؟ هذا ما نحاول الإجابة عليه عبر المفردات الآتية:**

١- نعني بالازدهار حدوث نوع من التقدم المتتابع على صعيد القوى البشرية وعلى الصعد السياسية والاجتماعية والصناعية والعمرانية والتنظيمية، إنه الارتقاء العام والشامل للناس والنظم والبيئات والعلاقات والإمكانات والمعطيات، وهذا كله محبَّب للنفوس وهي مجبولة على السعي إليه، لكن ذلك يحتاج إلى بيئة تساعد عليه، وتوفر شروط حصوله. **في الحالات والأوضاع الصعبة يمكن أن يحدث نوع من الازدهار لكن ذلك سيكون شاقاً جداً، ولأنه شاق، فإنه سيكون محدوداً، لأن المستعدين للعمل في الظروف الصعبة جداً دائماً قليلون.**

٢- إذا كان ارتباط الازدهار بالاستقرار سنة من سنن الله -تعالى- في الخلق، فإن علينا أن نشكل وعياً اجتماعياً حول مواصفات الاستقرار المطلوب وشروطه حتى يسهم فيه الجميع، كلٌّ على قدر طاقته، وحتى يحافظ عليه الجميع ويحمونه، ومن المهم في هذا الإطار أن أشير إلى أن كل الأمم تعول في تحسين استقرارها على القيم والمبادئ التي تؤمن بها، كما تعوِّل على الجهود التربوية التي يبذلها الناس في سبيل جعل سلوك الأجيال الجديدة مرتبطاً بعقائدها وتراثها ورؤيتها للحياة. **ونحن المسلمين نعتقد أن كل نوع من أنواع الطاعة موصول بنوع من أنواع النفع والخير، كما أن كل شكل من أشكال المعصية موصول بشكل من أشكال السوء والشر والضرر، هذه هي عقيدتنا وعقيدة أمم الأنبياء قبلنا**، وهذا هو نوح -عليه السلام- ينصح قومه قائلاً: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾[٤٣]. ويقول سبحانه

٤٣ - سورة نوح: ١٠،١٢.

في ربط الرزق بالتقوى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾[44] وقال في الربط بين الأمن والعمل الصالح: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٨٢﴾[45]. ووعد أهل الإيمان والعمل الصالح بالحياة الطيبة الهانئة، فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٧﴾[46]. وعلى هذا فإن صالحي هذه الأمة هم أكبر المساهمين في صنع ازدهارها، كما أن الفسقة والعصاة والمجرمين هم الخصم الأول لذلك الازدهار.

٣-الازدهار لا يكون في أي بلد على ما ينبغي إلا إذا توفر الأمن بمعناه الشامل.. أمن الناس على نفوسهم وأعراضهم وأموالهم وحقوقهم وكرامتهم ومستقبلهم، وذلك لأن الإنسان -كما هو شأن الكثير من الكائنات الحية- ينكمش على نفسه وينزوي حين يخاف، وحين يُهاجَم، وإذا أمن تحرك وبادر، وخاطر، واندفع في فجاج الأرض يعمل، ويكسب رزقه وينتج... إن الازدهار الاجتماعي عمل تراكمي طويل الأمد، وهو يحتاج دائماً إلى رؤى مستقبلية، وإن الخوف يجعل الإنسان مشغولا بتأمين سلامته الحاضرة ودفع الأذى عن نفسه. **الأمن يحتاج إلى نزاهة القضاء وإلى استقامة النظام الإداري، فالناس يتمادون في الطغيان حين يأمنون العقوبة ودفع ثمن الخطأ، ويشعرون بالأمن حين يعتقدون أن هناك ملاذاً يلوذون به عند انتهاك حقوقهم، وهذا شيء في غاية الأهمية**، والناس بالإضافة إلى الأمن الحقوقي في حاجة إلى

٤٤- سورة الطلاق: ٢،٣.

٤٥ - سورة الأنعام: ٨٢.

٤٦ - سورة النحل: ٩٧.

الأمن الوظيفي والمعيشي والاقتصادي، وهذا يحتاج إلى خطط تنموية فعالة وجيدة حتى يواكب الزيادة السكانية الكبيرة الموجودة لدى معظم الدول الإسلامية. وإذا لم يتوفر ذلك فإن كثيراً من الناس سوف يندفعون إلى أخذ الرشوة والسرقة من المال العام، وتصبح استثماراتهم ومشروعاتهم على مبدأ (اضرب واهرب) حيث لا يتوفر للمشروعات والاستثمارات البعيدة المدى ما تتطلبه من شعور بالأمن الاقتصادي، وهذا الشعور مع الأسف مفقود في كثير من دول العالم الإسلامي!

٤-الاستقرار الذي يحتاجه الازدهار كثيراً ما يكون مرتبطاً بالنظام والتنظيم؛ وقد فطر الله -سبحانه- الإنسان على حب التوقع والاستشراف --وهذا فارق مهم بينه وبين الحيوان- والفوضى تجعل الناس يتعاملون مع المستقبل كما يتعاملون مع المجانين، فهم يخشون من الاقتراب من المجنون ومن التعامل معه لأنهم لا يستطيعون أن يحدسوا بما يمكن أن يفعله. وهكذا الفوضى حيث إن الحياة غير المنظمة، تجعلنا نتحرك ونحن نتوجس خيفة من وقوع مآسٍ ومصائب كثيرة، لم نستطع توقعها وحساب حسابها. إن الناس يحتاجون إلى من يثقفهم بأهمية إطاعة القوانين والنظم السارية والتعامل معها باحترام، والعمل على تكييف حياتهم معها، ولا شك فإن هذا شاق على النفوس، لكنه جوهري في مسألة الازدهار، لكن الناس لن يطيعوا القوانين، ويرضخوا لها إلا بشرطين:

١- أن تتم مشاورتهم واستطلاع آرائهم فيها قبل أن تُسنّ، على ما يجري عليه العمل في العديد من الدول الأوربية، فهذا هو الذي يجعل القوانين أكثر عدلاً أو أقل حيفاً، وهو الذي يجعل الناس يشعرون بأنهم يمتثلون لقوانين قاموا هم باختيارها، ولا يخفى أن كلامنا هنا يتناول القوانين التي تنظم أموراً ليس فيها أحكام شرعية، أما

ما كان فيه حكم شرعي، فالمطلوب هو العمل بما شرع الله -تعالى- دون تردد، كما قال -سبحانه-: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾[٤٧].

٢- أن يتم تطبيق النظم والقوانين على جميع الناس دون أي استثناء، إن القانون أشبه بالثوب، وكما أن كل خرق في الثوب يُجهض وظيفته في الستر والتجمل، كذلك كل خرق للقوانين يذهب بشيء من هيبتها ومصداقيتها، ويقلّل من فاعليتها وقدرتها على تنظيم الحياة. ولا بد مع ذلك من تنظيم البيئة الاقتصادية، وذلك بالعمل على مكافحة التضخم وإبقائه تحت السيطرة والعمل على استقرار الأسعار وتوفير ظروف تُمكّن الناس من كسب لقمة عيشهم دون عنت أو مذلة.

٥- قد نكون في حاجة إلى التفريق بين الهدوء والاستقرار، أو قل: التفريق بين الاستقرار السلبي والاستقرار الإيجابي. إن الهدوء أو الاستقرار السلبي يعبر عن السكون وانعدام الاضطرابات، وهذا شيء جيد إذا قارناه بالأوضاع التي تسودها الفتن والهرج والمرج، لكنه شيء سيئٌ إذا كان أشبه بالجرح الذي التأم على فساد، حيث يتم غزوه من الداخل بالجراثيم والمكروبات، وهذا يحدث حين يكون الاستقرار قائماً على الظلم والقهر والفساد واليأس والبطالة والرذيلة، حيث ينشغل الناس بلقمة العيش الضرورية عن كل شيء نبيل. أما الاستقرار الإيجابي فإنه يقوم على العدل وحفظ الحقوق والنزاهة والتفاؤل والمبادرات الخيِّرة إلى جانب الإبداع في الإنجاز والإنتاج ومواجهة المشكلات، وهذا هو الذي يساعد على النهوض والازدهار.

---

٤٧ سورة النساء: ٦٥.

هي...
هكذا

22

المتعة بلا تكاليف موصولة بالتدهور



المتعة بلا تكاليف موصولة بالتدهور

إن الله -سبحانه- قد فطر الإنسان على التحرر من القيود، والميل إلى الدعة والراحة، أي العيش بأقل قدر ممكن من التكاليف والأعباء، وهذا وجه من وجوه الابتلاء لأن الإنسان إلى جانب حبه لراحة الجسم والتمتع بالأشياء في حاجة إلى الشعور بالتسامي عن بعض المتع الحسية وإلى الشعور بالسيطرة على بعض الرغبات، **وهذا يعني أن الحياة الاجتماعية الجيدة تحتاج دائماً إلى نوع من الهندسة التي تجعل الكفاح من أجل الحياة الكريمة مطلباً مستمراً، وثمناً لابد من دفعه عن طيب خاطر** حتى لا تؤدي طريقة الوصول إلى إشباع الرغبات بالإنسان إلى التدهور الخلقي. ولعلي أشير في هذا الإطار إلى الملاحظات الآتية:

١- لعلنا نلاحظ أن كثيراً من فتيان اليوم وشبابه لم يعودوا يولون الشأن العام والمصالح الكبرى لبلدهم الاهتمام الذي كان يوليه من هم في سنهم قبل خمسين سنة، قد تم فعلاً انحسار المشاعر القومية والوطنية، وتراجع الاهتمام بأمور أمة الإسلام لدى الأجيال الجديدة، وكان ذلك نتيجة الانكباب على الشأن الشخصي والانصراف إلى الحصول على أكبر قدر ممكن من المسرَّات الروحية من خلال الذهاب إلى المطاعم والمتنزهات ومن خلال الدوران مع الأقران في الشوارع ومن خلال سماع الموسيقى وتتبع كل ما هو جديد مهما كان تافهاً.... إنهم يستهدفون المتعة والسعادة على نحو مباشر، وهذا يؤدي بالطبع إلى نوع من التدهور الحضاري والأخلاقي، كما أن من يفعل ذلك يخيم عليه نوع من الحزن والاكتئاب والشعور بالضآلة والتفاهة، **وذلك لأن تناول المتع بإسراف أو بطرق غير مشروعة يوَلِّد لدى صاحبه نوعاً من العتمة الروحية، حيث تنقضي اللذة، ويبقى المرء ملفوفاً بالفراغ دون أي تطلع إلى أفق رحب يتجاوز الملذات العابرة!.**

٢- التقدم الخلقي والاجتماعي يكون ثمرة لذلك التوازن الخفي بين ما نأخذه من الحياة، وبين ما نقدمه إليها. إننا حين نهتم بأمور خارجة عن نطاق الانتفاع الشخصي المباشر، وحين نقوم بأعمال تصب في خدمة الوطن وتحقيق شيء من المصالح المشتركة، وحين نبذل الجهد في حقول الإنتاج المختلفة من أجل الحصول على ما نسد به حاجاتنا .... فإننا في الحقيقة نوفر صِمَام أمان لأنفسنا من التآكل الداخلي الذي يسببه الفراغ والعيش السهل، كما أننا نوفر ما يحول دون استنزاف الإمكانات المادية المتاحة. **المتعة التي ندفع ثمنها في صورة عطاء وإنتاج وإبداع وتعب ونصب توفر لنا قدراً من الشعور بالمسؤولية وقدراً من تهذيب الذات والسمو الخلقي بما**

تفرضه من ضغط على بعض الرغبات وتأجيل بعضها الآخر، وبما تتطلبه من تعلم واستيعاب للجديد وامتلاك للمهارات....

٣- تقدم (حبوب منع الحمل) نموذجاً للمتعة المجردة عن التكاليف والأعباء الحياتية العامة، لأنها أوجدت إمكانية هائلة للفصل بين ممارسة الجنس والإنجاب، وقد أشار أحد الباحثين الإنجليز إلى الخطورة الاجتماعية والأخلاقية التي يمكن أن تترتب على اختراع تلك الحبوب حين كانت في بداية انتشارها، حيث قال: **إن هذا الاختراع سوف يُحْدِث في المجتمع والأسرة والعلاقات بين الناس بوجه عام آثاراً، لن تقل في أهميتها عن آثار اختراع الآلة البخارية.** [٤٨] وقد حدث ذلك بالفعل، والأمر يزداد سوءاً يوماً بعد يوم، وقد ذكرت إحدى الإحصائيات البريطانية قبل سنوات قليلة أن نسبة أعداد المواليد الذين ولدوا خارج مؤسسة الزواج قد تجاوزت للمرة الأولى نسبة الأولاد الذين ولدوا داخل مؤسسة الزواج، حيث زال الخوف من العواقب المترتبة على ممارسة الرذيلة والوقوع في الزنا، واندرست تقاليد العفة والحشمة القديمة في الغرب، مما أدى إلى نوع من الفوضى العارمة في العلاقات الأسرية، فكثرت العلاقات المحرمة التي ينتج منها إنجاب والعلاقات المحرمة التي لا تؤدي إلى الإنجاب، إنه فعلا التدهور الذي يترتب على إمكانية ممارسة الجنس من دون الخوف من تبعات تكوين أسرة والإنفاق عليها!

٤- إذا كانت الحاجة هي أمّ الاختراع، فإن الرخاء المادي الذي لا تأتي به الجدية والعمل المبدع يمكن أن يتحول مع الأيام إلى مصدر للتخلف الحضاري ومصدر للفقر

---

٤٨ ماذا علمتني الحياة: ٣٧١.

والعوز، لأن عدم وجود ما يكفي من التحديات للعيش وتحقيق الأهداف العامة، يدفع بالناس إلى الكسل، ويحجب عنهم مسوِّغات الكدح والتطوير، وهذا ما يمكن أن يسمى بـ (خيانة الرخاء) وتقدم لنا أسبانيا نموذجا تاريخيا لذلك فقد كانت في القرن الخامس عشر الميلادي الدولة الأوربية الأولى في فنون الصناعة، وبعد استعمار الأسبان لأمريكا الجنوبية، وشحنهم الكميات الهائلة من الذهب إلى بلادهم، أخذت الصناعة في أسبانيا تتراجع بسبب وجود مصدر مجاني للرفاهية، وما زالت أسبانيا إلى اليوم في مؤخرة الأمم الأوربية على الصعيد الصناعي!.

● هل يعني هذا شيئاً؟

إنه يعني الآتي:

١- من المهم في كل مجتمع مسلم أن تكون هناك رقابة مشددة على آليات تكوين الثروة حتى لا تتحول الأموال التي تأتي من طرق غير مشروعة إلى أدوات للإفساد.

٢- نحن في حاجة إلى إحياء مشاعر الاهتمام بالشأن الوطني العام والاهتمام بقضايا الأمة الكبرى من خلال التربية والثقافة والإعلام.

٣- من المهم أن نوفِّر أطر عمل جديدة، ينخرط فيها الشباب على نحو طوعي من أجل خدمة القضايا العامة على الصعيد الدعوي والبيئي والاجتماعي.

●●●●

23

مع التقدم في السن ّ يفقد الإنسان كثيراً من مرونته

هي... هكذا

23 مع التقدم في السنّ يفقد الإنسان كثيراً من مرونته

دليل

يقارن الإنسان بين صورة أُخِذَت له وهو في العاشرة، وصورة أُخِذَت له وهو في الأربعين يرى بين الصورتين فروقاً واضحة، وهذه الفروق تزداد مع مرور السنوات، وهي دليل واضح على أن كل من على وجه الأرض في طريقهم إلى الفناء. مع التقدم في السن تتراجع مرونة المفاصل والأوتار والعضلات، وتتراجع قدرة الجسم عامة على تجديد نفسه، وليس هذا هو الذي يشغلنا هنا، وإنما ما نفقده من المرونة النفسية والفكرية. إن الضعف الذي يشتد كلما مضينا سَنَةً إلى الأمام، يوقظ كل التناذرات التي في حوزتنا، ويصبح الهمّ المسيطر علينا هو نفس الهم الذي يسيطر على الحيوان والنبات في ساعات

الأخطار المحدقة! إنه الحفاظ على الوجود والصمود إلى أن يتلاشى الإعصار، لكن إعصار الشيخوخة لا يقبل التلاشي!

إن الله -تعالى- فطر العباد على أن يدبروا شؤونهم على نحو يُعدُّ متميزاً بالمقارنة مع التدبير الذي يمكن أن يكتسبوه، أو يختاروه، حيث إن الوهن الذي يصيب الجملة العصبية لدينا مع تقدم السن، يتطلب تقليل الاتصال بكل ما يحيط بنا حتى لا نزداد وهناً على وهن من جراء الانفعالات السلبية والعنيفة التي يمكن أن تجتاحنا، وهذا ما يؤِّمنه لنا ضعف السمع والبصر، وهما أهم النوافذ التي نطل منها على الوجود، وهذا من رحمة الله وبركاته.

مع التقدم في السن يصاب الإنسان بما يمكن أن نسميه (السأم الوجودي) السأم من أعباء الحياة وتكاليفها، والسأم من أحداثها المكررة، كما قال الشاعر:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش
ثمانين حولاً لا أبا لك يسأم

هذا السأم هو ناتج طبيعي لقلة الخبرات الجديدة التي يمكن أن يكتسبها ابن الثمانين أو ابن التسعين -هناك دائماً شذوذات واستثناءات مقدَّرة- وناتج طبيعي لتراجع حاجات الإنسان الشخصية والتي ظلت على مدار سنوات الفتوة والشباب والكهولة تفجر طاقاته، وتحمله حملاً على العمل والحركة، كما أن شهوات الإنسان وقدراته على التمتع هي الأخرى ما بين ميت ومحتضر وعليل، ورحم الله الشيخ علي الطنطاوي حين قال: (كنا نشتهي الشيء ولا نجده، فلما وجدناه فقدنا الشهية)!

مع التقدم في السن يتراجع لدى المرء الشعور بالحاجة إلى المال وإلى المنصب والجاه، وتذبل لديه مشاعر المنافسة وحب الغلبة والتفوق على الآخرين، كما يتراجع لديه

الإحساس بالدهشة والمفاجأة والقدرة على التفاعل مع الأخبار السارة والمحزنة، وإن كنت قد نسيت الكثير من الأحداث، فإني لا أنسى اليوم الذي اشترى لي فيه والدي -رحمه الله تعالى- دراجة وأنا في الصف الأول الابتدائي، فقد أمضيت ليلة اليوم التالي أنتظر الصباح حتى أتعلم ركوبها، وأفاخر بها الأقران،! كذلك لا أنسى مشاعر الزهو والابتهاج والغبطة التي اجتاحتني حين نُشِر لي أول مقال في إحدى المجلات، وحين نزل لي أول كتاب إلى السوق، إنها مشاعر فعلاً فريدة، أما اليوم فقد اختلف كل ذلك، فأنا لا أعرف بالضبط عدد الكتب التي نشرتها، ولا أحرص على تلك المعرفة!.

الكبار في السن يتعجبون من حماسة الأطفال للهدايا التي يتلقونها، ومن حماسة الشباب للمشروعات والأفكار التي يطرحونها، أو تُطرح عليهم، وكأن الشعار قد أصبح لديهم: لا شيء يهم، لا شيء يثير الاهتمام، لا شيء يستدعي الاحتفال....

أما على المستوى الذهني والفكري فإن قدرة الذاكرة على الاحتفاظ بالمعلومات الجديدة تتراجع كثيراً، وإن كانت قدراتنا على المحاكمة العقلية تصبح أفضل، كما أن مدى الرؤية لدينا يتسع، لكننا نفقد الطاقة الروحية والجسمية على استقصاء الجديد من الأفكار والنظم والمعطيات ... ونفقد القدرة والمسوِّغ على التفاعل معه، وتوظيفه والاستفادة منه، كما أن قناعاتنا تصاب بشيء من التكلس، فقد ظهرت نهايات كثير من الآمال والوعود والمشروعات وأصبحنا على يقين من عقم كثير من الوسائل، وصارت درايتنا بالطرق المسدودة عظيمة، كما أن أنماطنا في التفكير وإدراك الوجود، تكون هي الأخرى قد أصيبت بالتيبس والجمود، وهذا كله يؤدي بالإنسان إلى اعتدال المزاج، وإلى إيثار الصمت، وعدم الاهتمام بالتعليق على الأحداث،

حيث يغلب على الظن أن لا شيء أكثر عقماً من الكلام والجدال!.

هل نستسلم؟

هذا ما يحدث إذا تركنا لعقولنا ونفوسنا أن تمضي في سبيلها دون أي محاولة للتدخل، وهذا ليس بالشيء الجيد؛ **إذ إننا عبيد لله -تعالى- وعلى العبد أن يستمر في خدمة سيده وعلى أفضل وجه ممكن إلى النَفَس الأخير**، وإن الواحد منا قد يؤلف كتاباً عظيماً ومؤثراً وهو في الثمانين، وقد يرأس عملاً خيرياً ناجحاً وهو في الخامسة والثمانين.... **المهم أن ننفخ دائماً على النار الخامدة في نفوسنا، وأن نحارب اليأس والتشاؤم**، بالإضافة إلى شحذ الهمة وامتلاك روح الشباب والتي تتجلى في الطموحات والتطلعات الكبيرة إلى آخر لحظة. إن الأجيال الجديدة في أمسّ الحاجة إلى الاقتباس من حكمة الشيوخ والاستنارة بملاحظاتهم الذكية التي تلخّص خبراتهم العريضة، وإن على الشيوخ أن يجودوا بكل ذلك بسماحة نفس وطيب خاطر، وقد ينفع الله -تعالى- الأمة برجل طاعن في السن، ويُجري على يديه من الخير ما لا يُجريه على أيدي العشرات من الشباب الأشداء؛ ولا حاجرعلى فضله.

●●●●

24

العواطف... ميالة إلى التطرف

هي...
هكذا

24 العواطف ميّالة إلى التطرف

إن معرفة الاعتدال والغلو والإفراط والتفريط، من أعمال العقل، فهو الذي يُصدر الأحكام فيها وفي غيرها، وهو الذي يميِّز بين ما يشتبك ويلتبس من كل ذلك، لكن علينا أن نقول أيضاً: إن العقل لا ينظر إلى الأشياء، ولا يحكم عليها بعيونه المجردة، وإنما ينظر إليها عبر غشاء من الثقافة التي غُذِّي بها، فالإنسان يُعلي من شأن الأشياء التي تعلي من شأنها بيئتُه وثقافتُه، ويحطُّ من قدر الأشياء التي يرى قومه يحطون من قدرها. أما المشاعر والعواطف والأحاسيس، فهي صماء عمياء، حيث إنها تتولد داخل النفس بعيداً عن الموازين الدقيقة والمعطيات الصحيحة، ولهذا فإن من السهل جداً أن يحبَّ الواحد منا شخصا حباً شديداً،

قلَّ نظيره، وبعد مدة ينقلب الحب إلى بغض لافت وغير مألوف، وقد يحدث العكس، فينقلب البغض الشديد إلى حب عارم. ويقدّم لنا (التعلق) الروحي الذي يُلمس بكثرة لدى المراهقين والمراهقات نموذجاً واضحاً في هذا **حيث يرى من تعلق قلبه بشخص من الأشخاص أن كل محاسن الكون قد جُمعت له وفيه، إن كل ما لديه من تصرفات ومواقف واختيارات، وكل ما يقوله، ويراه يثير الدهشة والإعجاب، وإن كل ما يمكن أن يصدر عنه من أخطاء ورعونات لا يكون في عين من تعلق به شيئا غير مقبول، إنه جميل وله مسوغات وهو معذور في كل ما يُقْدم عليه.**

● ولعلي أعمّق الرؤية إلى طبيعة العواطف عبر المفردات الآتية:

١- لدينا بعض النصوص التي توضح المرونة العظيمة للعواطف وكيف أنها قابلة للانتقال من النقيض إلى النقيض عند توفر الأسباب والظروف التي تساعد على ذلك، ويمكن أن نفهم ذلك من قول الله -تعالى- : ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾[٤٩] إن إكرام الخلق من خلال الصبر على أذاهم، ومن خلال مقابلة إساءتهم بالإحسان، من الأمور المؤثرة جداً في مشاعرهم حيث يمكن في معظم الأحيان أن يتحول العدو إلى ولي حميم وصديق مخلص. ونحن نعرف أن عواطف المرأة تكون في معظم الأحيان أقوى من عواطف الرجل، وأشد وضوحاً، وهذا لا يشكل مغمزاً أو مطعناً، لكن له تأثيره الواضح في العلاقة بين الزوجين حيث إن من الشائع والمألوف جداً أن يسمع الرجل من زوجته من الثناء والمديح وعبارات الإعجاب ما يتجاوز كل الحدود، وفي لحظة غضب أو جفاء، يتبخر كل ذلك لتفاجئ زوجها بعبارات قاسية تصوره مجرداً

٤٩- سورة فصلت: ٣٤.

من الفضائل، وتصور الحياة معه جحيماً، لا يطاق! والمرأة في كل ذلك لا تتصنع ولا تجامل، ولا تحقد، وإنما تساير عواطفها، من غير رقابة عقلية كافية لما يمكن أن يصدر عنها بسبب تلك المسايرة من أقوال ومواقف مملوءة بالتناقض والتطرف، وقد وضح ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- على نحو صارم وجازم حين روي عنه في حديث طويل أنه قال: (**ورأيت النار، فلم أر منظراً كاليوم قط أفظع. ورأيت أكثر أهلها النساء. قيل: بم يا رسول الله؟! قال: بكفرهنّ. قيل: يكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير -الزوج- ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى أحداهن الدهر كله، ثم رأت منك شيئا قالت: ما رأيت منك خيراً قط**)[٥٠]. وهذا لا يحتاج إلى تعليق.

٢- يمكن القول: إن العواطف تشتد، وتثور، وتتقلب على نحو متطرف كلما كانت ثقافة صاحبها ضحلة ومحدودة، **لأن الإملاق المعرفي يهمش سلطة العقل على ضبط العواطف وتوجيهها**، كما أن الجاهل لا يدرك على نحو حسن نصاب التوازن والاعتدال في كثير من الأحيان، وهذا يجعله يمضي خلف عواطفه في تقلباتها دون أن يشعر أنه قام بشيء غير لائق أو غير مقبول، ولهذا فإن الأمم التي قطعت شوطاً طويلاً في التقدم الحضاري والمدني.... تكون في العادة أقرب إلى الموضوعية في أحكامها، ويكون مدى تذبذب عواطفها أقصر، ونلاحظ هذا في الشعر، فالأمم النامية تستخدم البلاغة الكلامية، وتسرف في الذم والمدح أكثر من الأمم المتحضرة، حيث تكون هيمنة العقل والمعرفة على العواطف والمواقف والتعبيرات ضعيفة أو شبه مفقودة.

٣- قد يسأل المرء بعد كل هذا: كيف سيكون في إمكاني الحد من تقلبات عواطفي، ولزوم القسط والاعتدال في مواقفي الشعورية؟

---

٥٠ - رواه البخاري. وانظر فتح الباري٢: ٥٤١، ٥٤٢.

والجواب يكمن في الآتي:

● إن العواطف ستظل تحتفظ بطبيعتها، أي التطرف والتقلب، وما جُبلت عليه من كونها صدى للأفكار والرؤى والتقيمات التي يحملها الناس في رؤوسهم، وكونها صدى لأحداث الحياة ومواقف البشر بعضهم من بعض، **ولهذا فإن علينا دائماً أن نتوقع لعواطفنا نوعاً من الفوران غير المسوَّغ، وغير المقبول، وهذا يعني أن مهمتنا لن تتجاوز التهذيب ومحاولة التخفيف من الغلو والتطرف.**

● علينا في كل موقف شعوري وعاطفي أن نحاول تلمس طريق الرجعة، فإذا تعلقت قلوبنا بشيء، فلا نمضي معها إلى الحد الأقصى، وإذا نفرت من شخص أو أمر، فلا نمضي معها أيضاً إلى النهاية، وإنما نحاول أن نتذكر أن التعلق والنفور أمران متوقعان ومتقلبان، فلا ينبغي أن نتعامل معهما كما نتعامل مع الأشياء الثابتة والمستقرة، ولو أننا استحضرنا هذا المعنى في تعاملنا مع عواطفنا لأصبحنا أكثر توازناً، ولتخلَّصنا من الكثير من التذبذبات التي تعكر حياتنا الشخصية والاجتماعية. وقد أرشدنا إلى هذا المعنى معلم الناس الخير -صلى الله عليه وسلم- حين قال: **(أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما)**[٥١].

حين يحب أحدنا شخصاً لسبب من الأسباب، كأن يحب أسلوبه في التفكير، أو تفانيه في خدمة إخوانه، أو سماحته في التعامل مع الناس، فإن عليه أن يكون على وعي بذلك، ولا يقوم بتعميمه حتى يمدح كل شيء في ذلك الشخص، فيتجاوز الحقيقة،

---

٥١ حديث صحيح رواه الترمذي وغيره.

كما يفعل المراهقون والمراهقات حين تتعلق قلوبهم ببعض الأشخاص، فيحبون كل شيء فيهم، ويقلدونهم في كل شيء... وعليه في الوقت نفسه إذا تكونت لديه مشاعر سلبية أو انفعالات حادة تجاه صفة من شخص من الأشخاص أو عمل من أعماله، ألا يعمِّم ذلك عليه، ويذم كل ما فيه، أو يعمم ذلك على أهله وأقربائه وأهل بلده، فهذا من الظلم الذي لا يرضى الله عنه، كما أنه من المجاراة غير الصحيحة للعواطف والمشاعر، وقد نهانا الله -تعالى- عن ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [٥٢]. وقال - عليه الصلاة والسلام-: (**إن أعظم الناس عند الله فرية لرجل هاجى رجلا، فهجا القبيلة بأسرها، ورجل انتفى من أبيه وزنى أمه**) [٥٣].

●●●●

---

٥٢ سورة هود: ٨٥.

٥٣ حديث صحيح رواه البيهقي وابن ماجة.

25

كلما تقدم العلم...
ازداد حجم ما نجهله



كلما تقدم العلم ازداد حجم ما نجهله

لقد وصف الله -تعالى- الإنسان بأنه شديد الجهل حيث يقول -عز وجل-: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ (٥٤).

يقول ابن عباس -فيما روي عنه-: (الأمانة: هي الطاعة، وقد عرضها الله -تعالى- على السموات والأرض.... قبل أن يعرضها على آدم، فلم يطقنها. فقال لآدم: إني قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها، فهل أنت آخذ بما فيها؟ قال: يا رب ما فيها؟ قال: إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت. فأخذها آدم، فتحملها، فذلك قوله: ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٥٥).

٥٤- سورة الأحزاب: ٧٢.

٥٥ تفسير ابن كثير٦: ٤٨٨.

إن الإنسان جهول، وجهله يعود إلى أنه لا يملك المقدرة العقلية، كما أنه لا يملك الطاقة الروحية ولا الأدوات المطلوبة لمعرفة ما يجري من حوله على نحو جيد فضلاً عن أن يعرف ما يجري في أماكن بعيدة عنه، وتدل الآية المباركة التي أوردتها على أن شدّة جهل الإنسان تؤدي به إلى اتخاذ القرارات الخاطئة، إن الإنسان لا يعرف الموقف المناسب، ولا التصرف المطلوب تجاه الكثير من الأحداث. ويمكن أن نذكر في سياق جهل الإنسان شيئين مهمين:

الأول: هو أن ما يعرفه الإنسان اليوم في شتى مجالات الحياة، ربما يزيد ألف مرة - في المتوسط - عما عَرَفَه الإنسان قبل خمسة قرون، وكما قال أحد المفكرين: إن طالباً في السنة الثالثة في كلية الطب، لديه معلومات طبية أفضل وأكثر وأوثق من المعلومات التي كانت لدى علاّمة كبير مثل شيخ الأطباء ابن سينا! وهذا يعود إلى أن الجسم المنظّم من المعرفة هو من الضخامة إلى درجة لا يمكننا معها إجراء أي مقارنة بينه وبين ما كان سائداً قبل قرنين من الزمان. وأدوات الإنسان في الاطلاع على العالم وعلى الكون قد طرأ عليها تطورات وتحولات جذرية، ويكفي ما أتاحته الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) للبشرية من معرفة، يحتاج المرء إلى عمر أطول من عمر نوح حتى يطّلع على جزء صغير منها!.

الثاني: هو أن صفة الجهول التي وصف الله -تعالى- بها الإنسان ما تزال لصيقة به رغم كثرة ما يعلم اليوم، بل إن جدارته بالجهل تزيد، وذلك لأن ما لا يعرفه ينمو على نحو مطّرد، كلما ازداد تراكم المعرفة وكثر المشتغلون بها، وإن هناك من الدراسات ما يشير إلى أن المعرفة العالمية تتضاعف (كل سبع إلى عشر سنوات)، كما أن من الدراسات ما يشير إلى أن نصف العلماء الذين وجدوا على هذه الأرض منذ بدء الخليقة يعيشون الآن بيننا!.

ولهذا فإن الواحد منا إذا كان يعرف اليوم (٢٪) مما هو منشور في مجال تخصصه فإن هذه النسبة ستكون أقل بعد عشرة أيام، فنحن لا نستطيع أن نطّلع إلا على جزء مما ينشر، وهناك

معلومات كثيرة جداً لا تنشر، وليس هناك أي سبيل للاطلاع عليها.

ومن المهم في هذا السياق أن أنبِّه على أن الجهل لدى الإنسان ليس وليد عدم الاطلاع فحسب، إن الأمر أعقد من ذلك بكثير، ولعلي أوضحه في النقاط الآتية:

١- علينا ألا ننظر إلى عقل الجاهل على أنه عقل فارغ، إنه عقل مملوء بالشائعات والتصورات المنحرفة وبالخرافات والمعلومات والقواعد غير المدقَّقة ولا المختَبرة، إن الطبيعة -كما يقولون- تأبى الفراغ، ولهذا فإن المخيال الشعبي يملأ عقول أصحابه بكل الأفكار والمفاهيم التي توفر لهم بنية معرفية منسجمة ومفهومة... ولهذا كله فإن تاريخ العلم هو تاريخ الصراع بين الأوهام والخرافات القديمة والمعشِّشة في الرؤوس وبين الأفكار والمعلومات والحقائق الجيدة والممحَّصة.

٢- الإنسان جهول لأنه في كثير من الأحيان لا يعرف أنه لا يعرف، وهذا ما سموه بالجهل المركب، إن الإنسان لا يستطيع أن يعرف أنه غارق في الأوهام، وأن ما لديه من العلم محدود جداً أو مشوَّه.... إلا إذا أمكن تعريضه لتيار قوي جداً من المعارف الجيدة، وحتى هذا قد لا يفيد في بعض الأحيان، فيحتاج تكوينه المعرفي إلى ما يشبه العمل الجراحي حتى نفتح فيه بعض الثغرات.

٣- إن للإنسان طاقة محدودة على معالجة المعلومات التي تفد إليه من كل حدبٍ وصوب، ولهذا فإن هذا الدفق الهائل من الأخبار والتحليلات والمكتشفات... قد أوقع كثيراً من الناس في ارتباك شديد، فضلوا في محاكماتهم العقلية، وصدر عنهم الكثير من الرؤى والآراء الفجَّة والمبتثرة. وكثيرون منا يلجأون في مثل هذه الحال إلى (الانتقاء) كما يفعل المؤرخ حين يأتيه عشر روايات متضاربة في حادثة من الحوادث، إنه سيغض الطرف عن بعضها، ويعتمد بعضها الآخر، وهذا العمل في حد ذاته هو مصدر كبير من مصادر الخطأ ومجانبة الصواب.

● هل يعني هذا شيئاً؟

إنه في الحقيقة يعني الكثير من الأشياء، لعل من أهمها:

١- الكتّاب والعلماء والمفكرون والمعلمون وكل المهتمين بالشأن الثقافي مطالبون بتوعية الناس بمسألة زيادة الجهل في حياتهم، وتوعيتهم بمنابعه ومساراته وكيفية التعامل معه، وإنما نقول ذلك لأن من غير الممكن لأي أحد أن يتخلص من الجهل، وأن يعرف كل ما ينبغي أن يعرفه.

٢- نحن -معاشر المثقفين- في حاجة إلى أن نتحدث عن شيء من جهلنا ومن إخفاقاتنا على صعيد التعلم وعلى صعيد التعامل مع المعرفة، وقد يكون من المفيد أن نتحدث عن المسائل غير المحلولة، وعن مسالك الاجتهاد الضيقة في بعض القضايا، كما نتحدث عن شح المعلومات في موضوع من الموضوعات، وعن عدم إمكانية الوصول إلى رأي سديد في بعض المشكلات. إن هذا سيكون مفيداً للغاية بالنسبة إلى عامة الناس وإلى المبتدئين من طلاب العلم خاصة.

٣- إن بناء العقلية المنهجية الممتازة سيمكّننا من أن نتعامل مع ما نعرف على نحو جيد، كما يمكّننا من أن نأخذ بعين الاعتبار ما لا نعرف، فنراعيه في أحكامنا وقراراتنا وحواراتنا .. وإني لأسأل الله -تعالى- أن يكون لهذا الكتاب سهم في ذلك.

٤- تنظيم أوقاتنا على نحو أفضل والانكباب على القراءة والتعلم وجني المعرفة بكل ما نملك من عزيمة وإرادة وقوة.

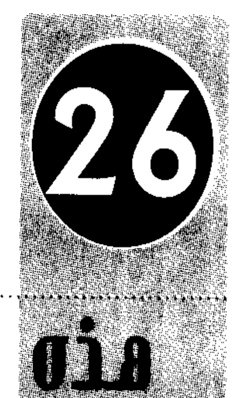
●●●●

26

الوعي بالذات...
فرع عن الوعي الآخر

هي...
هكذا





الوعي بالذات فرع عن الوعي بالآخر

السنة من السنن التي تحكم وعي البشر بشؤونهم وأوضاعهم المختلفة، وأنا أشبّه أحوال الأمم والشعوب والعلاقات التي تربط بينها بأوضاع (الأرقام) وعلاقتها ببعضها في إطار (السلسلة الرقمية): كل رقم يعرِّف ذاته من خلال تموضعه بين رقمين أعلى منه وأسفل. إن الرقم (٧) لا يعني أي شيء، ولا نستطيع أن نفهم منه أي شيء لولا الرقم (٦) والرقم (٨) كذلك الناس يتعرفون على أنفسهم من خلال محاولة فهم ما عليه نظراؤهم وأصدقاؤهم وأعداؤهم... **إنها المقارنة أم كل العلوم، والمصدر الأساسي لكل الفهوم**. تصور معي طالباً يدرس وحده في فصل دراسي كيف يمكن له أن يقول إنه: الأول أو الثاني

أو الثالث؟ وكيف يمكن لنا أن نتصور الكرم أو الصبر أو السماحة ... عند شخص من الأشخاص إذا لم يكن هناك أشخاص آخرون نقارن كرمه وصبره وسماحته بما لديهم من بخل وضجر وأنانية؟ وهذه بعض الملاحظات حول هذه السنة:

١- أود أن أقول أولاً: إن الوعي بالذات فرع عن الوعي بالآخر، كما أن الوعي بالآخر فرع عن الوعي بالذات، فنحن حين ننظر إلى الناس من حولنا، وننظر إلى الشعوب والأمم الأخرى ننطلق من قيمنا وخلفيتنا الثقافية، وننطلق من فهمنا للحياة والواقع ومن المعايير العامة التي نستخدمها في ذلك، وعلى سبيل المثال فإن الشخص الجاد جداً يقوِّم جدية الآخرين من خلال جديته هو ومن خلال رؤيته وتصوره لمعنى الكسل والتواني والهزل. لا يعني هذا أن رؤية الناس بعضهم لبعض تقوم على إدراك الشؤون المختلفة على نحو متبادل فحسب، وإنما يعني أن تحديد التفاصيل والمقادير الدقيقة يكون خاضعاً لذلك، بسبب أن هناك مبادئ ومعايير ثابتة يؤمن بها الناس بقطع النظر عن معرفتهم بما لدى غيرهم، ويمكن أن أقول بعبارة أخرى: إن تجسيد القيم في السلوك وفي الحياة العامة هو الذي يمنحها التحديد الدقيق، فالناس يؤمنون بفضيلة (الحلم) لكن لا يعرفون الدرجات العالية منه إلا من خلال سلوك مشاهير الحلماء، وهكذا...

● ما الذي يعنيه هذا؟

إنه يعني شيئاً جوهرياً هو أن وعينا بذاتنا سيظل ناقصاً ونسبياً ما دمنا نحصل على كثير منه عن طريق الوعي بالآخرين والذي هو أيضاً ناقص ونسبي، كما أن وعينا بما لدى الآخرين سيظل نسبياً وناقصاً ما دمنا ننطلق إلى بنائه من أفق وعينا بأنفسنا

والذي هو -كما أشرت- نسبي وناقص. وهذا يشكل تحدياً لنا، كما يشكّل دافعاً لأن نجتهد أكثر وأكثر في فهم الذات والآخر.

٢- حتى يكون الآخر مصدراً لتحسين وعينا بأنفسنا، فإن علينا أن نعترف بوجود الآخر القريب والبعيد، والصديق والعدوّ، فهم جميعاً ومن غير استثناء بمنزلة مرايا نرى فيها أوضاعنا وإنجازاتنا ووجوه قصورنا، ونعني بالاعتراف بوجوده أن نعتقد بأن لديه شيئاً ما يمكن أن نستفيده، ونتعلمه منه، كما نعتقد أن لديه شيئاً من القيم والمصداقية التي تجعل توجهنا للاستفادة منه شيئا مرغوباً ومطلوباً. قد كان الكفار عند نزول الوحي على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يشكلون الآخر المحارب والمناوئ، وكان الفرس والروم يشكّلون الآخر المحارب بالسلاح والمحارب على الصعيد الحضاري والأخلاقي ومع هذا فإن القرآن الكريم قد أسَّس للاعتراف بهم، حين لم يجعلهم كتلة من الشر، ونجد هذا في العديد من الآيات الكريمة، منها قوله: -سبحانه-: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانًا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾[٥٦]. وقوله: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾[٥٧]. وقد أخبر صلى الله عليه وسلم أصحابه بأنه قد

---

٥٦ سورة المائدة: ٨٢،٨٣.

٥٧ سورة آل عمران: ٧٥.

نظر فيما لدى فارس والروم، ورأى عاقبة بعض أعمالهم التي كانوا يعملونها، وأنه أخذ العبرة من ذلك، حيث قالت جدامة بنت وهب: حضرت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو يقول: (**لقد هممت أن أنهى عن الغيلة، فنظرت في الروم وفارس فإذا هم يغيلون أولادهم، فلا يضر ذلك أولادهم شيئاً**)[58] فقد كانت العرب تعتقد أن الرجل إذا جامع زوجته وهي مرضع، تضرر الولد من ذلك، واعتلَّ، فلم ينه عنه صلى الله عليه وسلم لما رأى من عدم اعتلال أبناء فارس والروم من ذلك. واستفاد من هذه الرؤية الصحابة - رضوان الله عليهم - فذكر بعضهم ما للروم من فضائل، على نحو ما نجده عند عمرو بن العاص، حيث روي أن المستورد القرشي ذكر عند عمرو ابن العاص أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (**تقوم الساعة والروم أكثر الناس**). **فقال له عمرو: أبصر ما تقول. قال: أقول ما سمعتُ من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. قال: (لئن قلت ذاك إن فيهم لخصالاً أربعاً: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف. وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك)**[59].

وحين ننظر في تاريخ حضارة الإسلام نجد أن الصحابة ومن جاء بعدهم كانوا يقاتلون فارس والروم ويقتبسون منهم في تنظيم شؤون الدولة في آنٍ واحد، كما فعلوا في ترتيب دواوين الجند والموظفين....

٣- بعد الاعتراف بالآخر والاعتقاد بأن فيه شيئاً من الخير، وأن لديه شيئاً ننتفع به سيكون المطلوب هو عدم تشويه الآخر والعمل على أن تكون الصورة التي نحتفظ بها

---

٥٨ رواه مسلم وغيره.

٥٩ رواه مسلم.

لأوضاعه المختلفة واضحة وعادلة ودقيقة، والحقيقة أن العالم يواجه معضلة كبرى على هذا الصعيد، فقد مضت سنة الله -تعالى- في الخلق أن يتوجس الإنسان خيفة من الإنسان، وأن يشكّل الآخر المناوئ مصدراً لخوف إضافي، بل مصدراً للشعور بالخطر الداهم، **وهذا الشعور بالخطر يُلهب نار الخصوصية والإحساس بالهوية بوصفها ترساً نختبئ وراءه من أجل حماية ذواتنا من الاجتياح**. هذا الشعور المبالغ فيه بالخصوصية يحملنا بطريقة خفية على تشويه الخصم والتقليل من شأنه وإبراز عيوبه وسلبياته، وبذلك نحرم أنفسنا من النظر في مرآة مستوية، نحن في أمس الحاجة إليها. ومن هنا نجد أن القرآن الكريم أكّد على هذه المسألة حيث قال -سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٨ ﴾[٦٠]. حيث أمر -سبحانه- بالقيام بالعدل والقسط مع الصديق والعدو، ونهى عن أن يستجيب المسلم لبغضه لبعض الناس، فيتجاوز العدل إلى الظلم. وذكر لنا القرآن الكريم نصيحة شعيب -عليه السلام- لقومه بإتمام المكاييل وإقامة الموازين، فقال: ﴿ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨٥ ﴾[٦١]. إن البخس يعني النقص، وكما أنه لا يصح نقص المكيال والميزان في الأمور المادية، كذلك لا يصح التغاضي عمّا لدى الناس من خير وصفات حسنة وإنجازات، والتهوين من شأنها وهضمها، فهذا نوع من البخس الذي نهى الله -تعالى- عنه، نحن نريد أن نرى الآخر على ماهو عليه تماماً من غير انبهار

---

٦٠ سورة المائدة: ٨.

٦١ سورة الأعراف: ٨٥

بما لديه ومن غير التقليل منه لأن ذلك يساعدنا على أن نرى أنفسنا بصورة أفضل.

● خلاصة الموقف من هذه السنة هو:

١- من المهم أن نطلّع على ما لدى الآخر من خير ومن شر، وإنجاز وقصور.... وأن نجعل ما يقوله هو عن نفسه أساساً في ذلك، وليس ما نراه نحن. والآخر في الحس الإسلامي العميق هو (الغرب) وإن كانت الدائرة تحتاج إلى توسيع.

٢- علينا أن نحاول فهم أسرار تقدم الغرب والدول الصناعية الأخرى وفهم الثمن الذي دفعه من أجل ذلك، فهذا يساعد على اكتشاف أسباب تخلفنا في المجال الصناعي والتنظيمي والإداري...

٣- من المهم أيضاً فهم المشكلات التي يعاني منها الآخر، مثل مشكلة الجريمة والتفكك الأسري، وضياع الأهداف الكبرى ...، وعلينا إلى جانب هذا أن نعرف كيف يعالج الآخرُ هذه المشكلات؛ لأن العولمة تعمم المعرفة والتقنية، وتعمم المشكلات أيضاً. إن الآخر قد يكون خطِراً جداً، وقد يكون محايداً أو منافساً، لكن لديه دائماً جزء من الحل لبعض ما نعاني منه، ولدينا أيضاً جزء من الحل لبعض ما يعاني منه، ولهذا فكما أن علينا أن نفهمه بطريقة ممتازة، فإننا مطالبون أيضا بأن نساعده على أن يفهمنا بصورة واضحة، وذلك من خلال عرض منهجيتنا ورؤيتنا الحضارية ومن خلال ترجمة سلوكنا وأوضاعنا لتلك المنهجية وتلك الرؤية.

●●●●

هي...
هكذا

27

لكل مجال...
طبيعته الخاصة



لكل مجال طبيعته الخاصة

يتحرك الناس في مجال من مجالات الحياة المختلفة، فإنهم يجدون أنفسهم محكومين بطبيعة ذلك المجال وقوانينه المرئية وغير المرئية، وهي نابعة من عدد من المصادر، منها: الطبيعة البشرية ذاتها، وأشواق الناس وطموحاتهم، وما يرجونه من وراء الحركة في ذلك المجال، بالإضافة إلى السنن التي تحكم اجتماع الناس بعضهم ببعض مثل التوتر والتحابب والتنافس والتعاون والرحمة والشفقة والعدوان والنصح والغش...، ولا ننسى طبائع الأشياء التي يتم تداولها والتعامل معها وطبائع المشكلات التي يواجهونها في ذلك المجال. إن الدنيا دار للابتلاء، وسنجد أننا مبتلون بصنف من

صنوف الابتلاء في كل حركة من حركاتنا وفي كل سكون، وإن العمل في ظل طبائع خاصة لمجالات عملنا هو جزء من ذلك الابتلاء. ومن الواضح أننا لا نتمكن من فهم طبيعة أي مجال إلا إذا خضنا غماره، وانخرطنا في البحث عن فرصه وثماره، وواجهنا عقباته ومشكلاته؛ وليس الخبر كالمعاينة. وقد تعودنا إصدار الأحكام من بعيد على المتحركين في كل المجالات دون أن تكون لنا الممارسة والتجربة العملية، وهذا يجعل كثيراً من أحكامنا خاطئاً وجائراً، ولهذا فينبغي الحذر والتحوط .

تطبيقات عملية:

● المجال الدعوي:

يستهدف الدعاة -على نحو عام- التأثير في المدعوين، وجعلهم يتفاعلون مع طروحاتهم، ويتقبلون الأفكار والقيم التي يدعون إليها، وهذا ملازم لكل داعية مهما كانت نوعية دعوته، ومهما كان ما يدعو إليه، ومهما كانت نوعية المدعوين. ويحاول الداعية في سبيل بلوغ ذلك أن يستخدم كل ما يمكن أن يساعده من الحجج والبراهين والمؤثرات اللفظية وغير اللفظية، كما يحاول تلمس أحوال المدعوين وقراءة مدى استعدادهم للتفاعل مع ما يقوله. ونحن نعرف أن في كل المجلات وسائل مشروعة وسائغة ومقبولة، و وسائل محظورة وغير لائقة، **والمشكل يكمن في أن المسافة الفاصلة بين المقبول وغير المقبول ذات أوساط متدرجة، ولهذا فقد يكون المرء أقرب إلى غير المقبول، وهو لا يدري، وقد يدخل في منطقة المحظور، وهو يظن أنه ما زال في حيز الجائز والمقبول.** حدث هذا مع كثير من الدعاة، وما زال يحدث، وكلنا يذكر كيف أن بعض الوعاظ والقصَّاص وضعوا أحاديث على النبي - صلى الله عليه وسلم- من أجل ترغيب الناس

في بعض الأعمال الصالحة وترهيبهم من بعض المعاصي، وحين قيل لهم: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: **(من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)**[٦٢]، قالوا: نحن نكذب له، لا عليه!!. إنَّ الرغبة الجامحة في التأثير في الناس تدفع بعض الدعاة والوعاظ اليوم إلى الاستشهاد بالأحاديث الموضوعة والضعيفة وسوق الحكايات والحوادث الغريبة والشاذة، وكثير من ذلك لا يقبله عقل ولا نقل! **إذا كنتَ داعية فإن من طبيعة العمل الجليل الذي تقوم به أن يدفعك بصورة خفية إلى التهويل والمبالغة والترغيب والترهيب على نحو يبتعد عن الواقع أو عن روح الشريعة الغراء، بل يجافي أحيانا الواقع والشريعة مجافاة تامة، ولهذا فلا بد من الحذر والانتباه الشديدين.**

● المجال الفكري:

العمل الأساسي للمفكر هو صناعة الأفكار وإنتاج المفاهيم الجديدة، وما ينتجه من أفكار ومفاهيم يكون موزَّعاً في الغالب على مساقين أساسيين:

الأول: مساق يتم فيه إنتاج الأفكار والمفاهيم التي تُلقي الأضواء على الماضي من أجل الكشف عن معطياته وملابساته وأخذ العبرة منه إلى جانب محاولة فهم الواقع وتحليله وإبراز ما فيه من مشكلات وأزمات.

الثاني: مساق يقوم فيه المفكر بإنتاج الأفكار والمفاهيم التي تساعد الناس على مواجهة المشكلات التي يعانون منها، والتي تساعد على ارتياد آفاق جديدة للنهوض والتقدم، بالإضافة إلى صياغة رؤية استكشافية للمستقبل...

---

٦٢ - هذا حديث متواتر.

● **فما طبيعة المجال الفكري يا ترى؟**

١- كثيراً ما يبدي المفكر لمن يتابع طروحاته نوعاً من الوثوقية الزائدة، حيث إن من طبيعة العمل في إنتاج المفاهيم أن يمنح صاحبه شيئاً من الزهو والاعتداد بالنفس فصناعة المفاهيم عبارة عن سلسلة من الاكتشافات الفكرية المتواصلة، والاكتشاف يجعل صاحبه يشعر بالتفوق على الأقران، ويزيد في هذه الوضعية قلة المفكرين في الأمة - وفي كل الأمم- فلا يجد المفكر من يراجعه أو يباريه أو ينقده على نحو جيد. وهذه مشكلة حقيقية، حيث إن من مصلحة الفكر والمفكرين أن يكون لدينا الكثير من الباحثين المهتمين بالقضايا المعاصرة، **وهذا يعني أن على المفكر أن يتواضع، ويتهم نفسه، ويدرك أن الحقيقة ذات طبقات، وأنه ستظل أمامه طبقات لم يستطع بلوغها أو اختراقها، وهناك حول كل قضية تساؤلات لا يملك أجوبة لها.**

٢- يظهر المفكر أحياناً وكأنه من مثيري الجدل والشغب الثقافي، وذلك لأن من طبيعة عمله القيام بإلقاء الحجارة في المياه الراكدة وحفز الناس على إعادة التفكير في مسائل يظنون أنهم قد فرغوا منها. والحقيقة أن الأفكار حين تحوز الإجماع تفقد جزءاً من طاقتها الإبداعية؛ والمشكل أن الناس يزهدون في كلام العالم إذا ساق المسلّمات، وما هو موطن اتفاق، ويستوحشون منه إذا جاءهم بآراء خارجة عن مألوفاتهم، أي أن الناس أصحاب مطالب متعارضة!. وأعتقد أن المفكر الحقيقي لا يستطيع أبدا الاندماج في البنية الثقافية السائدة، وإذا صارت أفكاره من جنس ما يراه معظم الباحثين، فإنه يفقد دوره الريادي، بل يفقد جوهر المهمة التي تصدى لها. **ولهذا فلا بد من التعاطي مع القضايا بجرأة ومصداقية وحكمة، ولا بد للناس من الصبر على ذلك.**

٣- مجال الفكر هو مجال بلورة الرؤى الكلية، وليس مجال التدقيق في الجزئيات،

ولهذا فإن المفكر لا يدقق كثيراً في الأرقام ولا في المعطيات الصغيرة، إنه غارق في فهم العلاقات ومحاولة إدراك الخطوط العريضة في المسائل والقضايا المختلفة، ولهذا فإن علينا ألا نلتمس منه أن يوفر لنا معلومات دقيقة في الكثير من القضايا، لكن المشكل هو أن المفكر قد يستهين ببعض الأحكام التفصيلية على الرغم من وجود أدلة صريحة فيها، وقد يصادم بقوله إجماعاً، وهو لا يدري، وهذا طبعاً عند إحسان الظن به. والمفكر المسلم يدرك هذا، ويحاول أن يحتاط من الوقوع فيه.

٤- ليس من المستغرب أن يعاني من يتحرك في المجال الفكري من شيء من الجفاف الروحي والجمود العاطفي في علاقته بالله -تعالى- وذلك لأن المفكرين يحاولون أن يكونوا موضوعيين على قدر الإمكان، كما أنهم يمارسون التعليل والتحليل بكثرة، مما يجعل فهمهم للأشياء يبدو وكأنه مادي. وبعض المفكرين يتمادى في ربط الأسباب بالمسببات، فيغيب عن طروحاته بعض المعاني الإسلامية مثل التوكل والتوفيق ومثل تأثير المعاصي في تدهور الأوضاع والمشروعات. ولا ننسى أن كثيراً من المفكرين يُكثرون من الجدل والدخول في نزاعات فكرية وثقافية على نحو مستمر، وهذا يستهلك الطاقة الروحية لديهم. **ولذا فإن على المفكر المسلم أن يعمق المعاني الإيمانية في نفسه، وأن يعيد شحن طاقته الروحية باستمرار.**

● المجال السياسي:

لم تواجه البشرية في تاريخها الطويل معضلة كالمعضلة التي واجهتها في المجال السياسي، وإن كل النظم السياسية التي صاغها البشر تتسم بالقصور الذاتي؛ وعلى الرغم من الإشادة الكبيرة التي يلقاها النظام (الديمقراطي) فإن الغربيين قد

كتبوا عشرات الكتب في بيان مثالب الديمقراطية، لكن يبدو أنهم لم يعثروا على نظام أفضل منه، لذلك فإنهم متمسكون به.

● **إن من ملامح طبيعة النظام السياسي الآتي:**

١- السياسة هي مركز التوازنات والحلول المتوسطة، فالسياسي حين يكون في السلطة يشعر بأنه مسؤول عن تلبية أكبر قدر ممكن من رغبات الناس وتطلعاتهم،وحين يكون خارج السلطة، يدفعه إلى مثل ذلك الطمعُ في نيل أصوات الكثيرين في أي انتخابات يتم إجراؤها. السياسي وإن حابى فئة أو مجموعة من الشعب على حساب الباقين، فإنه لا يستطيع إظهار ذلك لأن طبيعة السياسة تأبى ذلك. المشكل هو أن الناس لا يعرفون هذه الطبيعة، فإذا أمسك ساسة إسلاميون بالسلطة في بلد طلب منهم الإسلاميون أن يقدِّموا كل البرامج، ويطبقوا كل النظم التي يعتقدون بوجوب تطبيقها، كما أنهم يريدون منهم أن يحجِّموا كل الفئات والمجموعات غير الإسلامية، وبما أن ذلك لا يتناسب مع طبيعة السياسة فإن كثيرًا من السياسيين لا يقومون بذلك، ولهذا فإن الجماهير الإسلامية لا تكون في الغالب راضية عن ممارسات الساسة الإسلاميين الذين دفعوا بهم إلى سدة الحكم. ويمكن أن تقول هذا أيضاً بالنسبة إلى الساسة غير الإسلاميين وإلى الجماهير غير الإسلامية وغير المتدينة. والساسة الذين لم يتصرفوا على هذا الأساس الذي أشرنا إليه أخفقوا إخفاقاً ذريعاً، ونالوا ذمَّ جميع الأطراف.

٢- تحتاج الحكومات مهما كانت شرعتها ومذهبيتها، ومهما كانت نوعية النظام السياسي الذي أفرزها إلى شيئين أساسين **هما: المشروعية والإنجاز. ونعني**

بالمشروعية هنا شعور الناس بأن الدولة تمثلهم فعلاً، ولديهم الكثير من الأسباب التي تجعلها تحقق مصالحهم على أفضل وجه ممكن، وهذا لا يتم بصورة جيدة إلا إذا كانت هناك آلية لتصحيح الأخطاء والمحاسبة عليها. أما الإنجاز فالمقصود به هنا قدر من النجاح في تحقيق تطلعات الناس وحل مشكلاتهم المختلفة وحراسة المبادئ والقيم التي يؤمنون بها، وهذا القدر غير محدَّد في الحقيقة لكن الناس لديهم مهارات فائقة وعظيمة في فهم ذلك النجاح من خلال مقارنة أحوالهم بأحوال شعوب مجاورة أو مناظرة، وإن انفتاح العالم على بعضه بهذه الصورة المذهلة يسهِّل عمليات المقارنة، ويزيد في فهم الناس لواقعهم؛ **لكن من الملاحظ أن الناس لن يرضوا أبداً عن إنجازات حكوماتهم مهما كانت، والسبب في ذلك هو الإنجازات نفسها، حيث إن التقدم الحضاري يزيد في طموحات الناس، ويقوِّي حساسيتهم نحو المشكلات، لكن الحكومات حين يكون لديها إنجازات حقيقية موثقة بالأرقام الدقيقة، فإنها تستطيع الدفاع عن نفسها أمام الجمهور.** إذا كانت الدولة غير مشروعة، فإنها تستمد الكثير من مشروعيتها من إنجازاتها وخدماتها المتميزة التي تقدمها لشعبها، لكنها تواجه ظروفاً عصيبة إذا لم يكن لديها إنجازات، مما يدفعها إلى القيام بأمرين سيئين هما استخدام القوة، وقول غير الحقيقة أو تضخيم الحقيقة على نحو مبالغ فيه. إذا كانت الدولة مشروعة وليس لديها إنجازات جيدة، فإنها لن تكون موضع ترحيب من أحد، بل إن عامة الناس يهتمون بإنجازات الحكومات أكثر من اهتمامهم بمشروعيتها، **لكن ميزة**

الحكومة المشروعة أنه يمكن استبدال غيرها بها من غير إراقة دماء، وهذه ميزة كبيرة. الشرعية والإنجاز هما الجناحان اللذان لا تستطيع أي حكومة أن ترتفع إلى أعلى من غيرهما.

٣-لا يستطيع السياسي أن يدير شؤون بلاده من غير استخدام قدرٍ ما من القوة، حيث إن هناك أعداداً كبيرة من الناس لم يتلقوا التربية الجيدة، ولم يظفروا بالنشأة الاجتماعية الحسنة، ولا تستطيع أي حكومة معالجة مشكلاتهم ومحاسبتهم على جرائمهم من غير استخدام القوة والشدة. المشكل في هذا أن القوانين والنظم والأحكام الجزائية مهما كانت مفصلة وواضحة، فإنه سيظل هناك فراغات قانونية يتم ملؤها عن طريق الاجتهاد الشخصي لبعض رجال الحكومة مثل تحديد ما هو خطِر على الأمن الوطني وتقدير حجم ذلك الخطر -مثلاً- فإن العالم مرتبك حيال هذه المسألة، وفيها اجتهادات صائبة كثيرة، واجتهادات مخيبة للآمال أيضاً كثيرة. وبما أن السياسة تقوم في جوهرها على التفاوض والتنازل والحلول المتوسطة والمراعاة، فالمتوقع من الدولة الفاضلة أن تستخدم أقل قدر ممكن من القوة في إدارة شؤون بلادها، وكلما كانت الحكومة غير ناجحة في ذلك كان القدر الذي تحتاجه من القوة أكبر، وهذا ليس موضع خلاف. بعض الناس لا يستوعبون هذا المعنى، ولهذا فإنهم دائمو الشكوى من تقييد حرياتهم ومن الاعتداء عليها، كما أنهم دائمو الشكوى من القسوة التي تُستَخدَم ضدهم، ومع أن بعض ما يقال صحيح في كثير من الأحيان، إلا أنه لا يمكن لدولة أن تقوم وتستمر من غير شرطة وأمن وسجون وعقوبات كما أنه لابد أن يكون هناك شيء من القيود على الحريات العامة في بعض الأحيان من أجل منع البلاد من الانزلاق نحو الفوضى.

• المجال التجاري:

من الواضح جداً أن النظام التجاري هو أقوى النظم الثقافية على الإطلاق، ولا أعرف من أين جاءته تلك القوة الطاغية، لكن يبدو أن ذلك بسبب أنه يَعدُ دائماً بآفاق غير محدودة للمكاسب والأرباح. ومن هنا فإن المرء إذا كان يعمل في الزراعة والتجارة، أو في الطبابة والتجارة، أو في التدريس والتجارة.... فإن الذي يستحوذ عليه في كثير من الأحيان هو التجارة، للمعنى الذي ذكرناه وقد ورد في الحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ما يدل بوضوح على سطوة نظام التجارة وهيمنته على النفوس حيث ذكر أصحاب الصحاح أن -رسول الله صلى الله عليه وسلم- كان يخطب الناس يوم الجمعة إذ أقبلت عير تحمل الطعام، فخرج الناس من المسجد، وتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب ليس معه إلا اثنا عشر رجلاً. ويروى أنه قال: (**والذي نفسي بيده لو خرجوا جميعاً لأضرم الله عليهم الوادي ناراً**). وقد نزل في هذا قول الله -تعالى-: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾﴾[٦٣]. إن الرغبة الشديدة للناس في أن يحققوا أعلى الأرباح، تجعل توازنهم الخلقي ضعيفاً، وتجعل مناعتهم تجاه تجاوز الحقيقة واهية، وقد ذكر ابن جرير بإسناد صحيح أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر ثلاثة يشنأهم الله -تعالى- وذكر منهم (التاجر الحلّاف)، أي الكثير الحلف من أجل المزيد من الربح، أو دفع الخسارة. وروى أبو داود وغيره بإسناد صحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (**يا معشر التجار إن البيع يحضره اللغو والحلف فشوبوه بالصدقة**) وعند النسائي: (**يحضره الكذب والحلف**). إنني أفهم من هذا أن الكذب والحلف

---

٦٣ - سورة الجمعة:١١.

بالله -تعالى- جزء من نظام التجارة، أو من طبيعتها، وقد حذر النبي التجار من ذلك، وجعل العلاج في الصدقة، من باب محو السيئات بالحسنات. ويمكن أن نضيف إلى ما ذكرناه من طبيعة النظام التجاري الآتي:

١- من طبيعة المجال التجاري أنه يرسخ أخلاق التفاوض والتنازل والمساومة والحلول الوسطى، فالناس في هذا المجال مستعدون للتراجع عن طلباتهم بسرعة، وربما كان ذلك لأن التاجر حين يريد طلب سعر معين لسلعته يعرف أنه سيتم التفاوض عليه من قِبَل المشتري، ولهذا فإنه يغالي فيه في البداية ليحصل على ما يريده في النهاية. وقد نضج علم التفاوض اليوم على أيدي مديري الشركات الكبرى وعلى أيدي مندوبي التسويق، وصار له تنظير معقَّد، ومقولات ذائعة. ولا شك في أن أخلاق التفاوض والبحث عن حلول مشتركة تعبر عن نوع من التحضر والمدنية، ولا سيما حين تكون بديلاً عن التعانف والتقاتل، لكن الغموض في هذه المسائل يجعل الانتقال من التحضر إلى الانحطاط شيئاً سهلاً، ولا يخفى أن العولمة بوصفها وضعية كونية جديدة تعتمد (**التجارة**) ركيزة أساسية لها، قد أضعفت تمنُّع كثير من الناس تجاه المساومة على المبادئ والقيم والشرف والكرامة، فمبدأ (**كل شيء قابل للتفاوض**) تم التوسع في تطبيقاته على نحو مُفزع حتى صار الواقع يحكي مبدأ (**كل شيء قابل للبيع**)! وقد ضعفت الأمانة لدى كثير من الناس، وانتشرت الرشوة، وصار يُنظر إلى الامتناع عن أخذها على أنه نوع من التشدد والغلو وعدم فهم تحقيق المصالح في زمان كزماننا!.

٢- أحياناً يفهم بعض الناس النظام التجاري بطريقة أخرى، هي أن في إمكان التجارة أن تكون مصدراً لربح عظيم من خلال كسب (**الزبون الدائم**) فما دام المقصود الحصول

على قدر كبير من الأرباح، فإن هذا يأتي من وراء كثرة البيع، وكثرة البيع تتطلب مشترين يصبحون عملاء دائمين، وهذا لا يكون إلا إذا شعر الناس بأن التاجر الذي يتعاملون معه صادق وأمين وناصح، بمعنى أن الاستقامة الخلقية والسلوكية هي باب واسع من أبواب الرزق، ولعل قوله -تعالى-: ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨)﴾[٦٤] يحفز التاجر المسلم على الاستقامة التي ذكرناها، ويصف القرآن الكريم الرجال عمّار المساجد بأنهم أكبر من أن تستولي عليهم المنافع التجارية،وأن تغيّر أخلاقهم، ويَعدهم سبحانه بالرزق الوفير الذي يزيد عن مقادير الجهد المبذول في طلبه.

٣- مجال التجارة هو المجال الطبيعي لفن الدعاية والإعلان، بل إن الشركات التجارية هي التي تنفق معظم ما ينفقه العالم على الدعاية، والذي يتجاوز خمسمائة مليار دولار سنوياً. على مدار التاريخ كان الناس يحاولون بيع سلعهم بأعلى سعر ممكن - والحالات الشاذة في هذا تؤكد القاعدة - وهذا يتحقق عن طريق إبراز ميزات ما لديهم وإخفاء عيوبه، وعن طريق ممارسة نوع من الخدعة للزبائن أو نوع من الاستغفال لهم أو استغلال جهلهم... هذا هو شأن من يحتل حصوله على أكبر قدر من الربح سُلّم أولوياته، وهم كثيرون، كما أن الذين يتورعون عن هذا أيضاً موجودون، لكن طبيعة المجال تصنع دائماً الكثير من المتساهلين والمتجاوزين، وتظل الاستقامة والنقاء والنصح في حاجة إلى مجاهدة النفس والسباحة ضد التيار. إن العمل في مجال التجارة -في نظري- خطير، والمتحرك فيه يشبه الذي يمشي على حبل مشدود،

٦٤- سورة النور: ٣٦ - ٣٨.

● **ولابد لمن ينخرط فيه من ملاحظة الأمور الآتية:**

● الاعتقاد بأن الله هو الرزاق وهو الذي يبارك فيما يحصل عليه المرء من مال، وهو الذي يمحقه، ومع أن كل مسلم يعرف ذلك إلا أننا نريد أن نجعله على سطح الوعي حاضراً عند كل تصرفاتنا.

● لا يستطيع الواحد منا إذا جعل الحصول على أعلى درجة من الربح هدفاً ثابتاً له أن ينجو من الكذب والغش في تجارته، **والمهم أن نعمل على أساس أن الجمع بين أقصى المصالح مع التمسك المطلق بالمبادئ، لا يكون ممكناً في أكثر الأحيان، والسعيد الموفق من يضحي ببعض مصالحه في سبيل البقاء على الطريق القويم.**

ولنتذكر قوله –صلى الله عليه وسلم–: **(الحلف منفقة للسلعة ممحقة للبركة)**[٦٥].

● التزام الصدق في المعاملة، وإظهار عيوب السلعة، وعدم المبالغة في ذكر ميزاتها ... مسؤولية أخلاقية كبيرة، وهذا يحتاج من المسلم أن يتعلم استخدام اللغة بدقة وحرص حتى لا يكذب، ولا يَخْدع.

● إن القوة في العمل والمهارة في ممارسته والخبرة الجيدة في إدارته تجعل المرء يربح دون الاحتياج إلى الخروج على الآداب الإسلامية، ونحن نعرف أن الضعف في ممارسة كل الأعمال، يدفع بالناس إلى ارتكاب الأخطاء السلوكية الفادحة من باب التعويض.

● اتباع سياسة **(الأسعار الموحدة والثابتة)** يخفف من الكذب والجدال والتفاوض والحديث عن الجودة، ويجعل الأمور بشكل عام أقرب إلى الصواب؛ وهذا ما نلاحظه اليوم في **(السوبر ماركات)**.

إن هناك العديد من المجالات التي يمكن أن نتحدث عنها، وذلك مثل المجال

٦٥ رواه البخاري.

الإعلامي والمجال التربوي واللغوي، لكننا هنا نحاول تقديم بعض النماذج، وليس الاستقصاء. إن معرفتنا الجيدة بمجالات الحياة، تجعلنا نتسلح بالأخلاق والمعارف والمهارات المطلوبة للعمل فيها، كما أنها تساعدنا على مواجهة مشكلاتها وعقباتها المتنوعة؛ وهذه المعرفة يمكن اكتسابها عن طريق القراءة الواعية والمتعمقة وعن طريق التأمل والتقاط الإشارات الذكية؛ والله المستعان في كل حال.

●●●●

28

أنت لا تستطيع...
أن تجمع بين كل الخيارات

28 نحن

أنت لا تستطيع أن تجمع بين كل الخيارات

بني البشر -مهما عظمت إمكاناتنا- نظل محدودين على مستوى الفهم والإدراك وعلى مستوى التصرف والحركة، وإن الله - عز وجل - فطر الأشياء على طبائع محددة، وجعل في كل مجال من المجالات سنناً ثابتة قائمة على طبائع الأشياء وعلى التداعيات والمعطيات المنطقية والطبيعية التي تترتب على اجتماعها مع بعضها كما ذكرنا قبل قليل، ونحن إلى جانب هذا مفطورون على حب الخير والاستيلاء على كل شيء والاستزادة من كل نفع، لكن السنن لا تطاوعنا دائما، فحين تكون هناك خيارات أو نظم أو أنساق متنافرة أو متقاطعة، فإنك لا تستطيع أن تجمع بينها، وإذا فعلت ذلك فإنك

قد تحصل على نتائج ضعيفة أو مشوهة، وقد لا تحصل على أي شيء. والحقيقة أن معرفة الخيارات المتاحة وفهم طبائعها، وكيفية التعامل معها.. تحتاج إلى درجة عالية من العلم المركّز والتخصص العميق، وهذا ما يفتقده كثير من الناس.

● وهذه بعض التطبيقات لهذه السُّنة العظيمة:

١- تثور اليوم أسئلة كثيرة حول العلاقة التي ينبغي أن تقوم بين العالم الإسلامي وبين أمم الأرض ، ونجد أن هناك من يؤيد العزلة والانفتاح بضوابط وبأقل قدر ممكن، وذلك بسبب التحلل الأخلاقي الرهيب الذي يموج به العالم. وهناك من يرى أن الدول التي أخذت بخيار العزلة - أو فُرِض عليها- ليست في أخلاقها ومعيشتها أحسن حالاً من تلك التي انخرطت في علاقات شبه مفتوحة مع كل الشعوب الأخرى، ولستُ بصدد مناقشة هذه المسألة الآن لكن أود أن أقول: إن لكل خيار ميزاته ومشكلاته، ولا نستطيع أن نأخذ بأي خيار مجرداً من تبعاته. وإذا قلنا ننفتح في الأمور التقنية وننعزل في الأمور الأخلاقية والفكرية كان علينا أيضاً أن ندفع ثمن العزلة وثمن الانفتاح إلى جانب جني فوائدهما. الأخذ بخيار الانفتاح يفيد في نقل الخبرات العالمية، وقد يوفر بعض فرص العمل، ويساعد على توطين التقنية، لكنه سيظل يشكل نوعاً من الخطر على الهُويَّة ونقاء المفاهيم والأخلاق والعادات الإسلامية والمحلية مهما كان احتياطنا عظيماً، وهذا ليس موضع جدال. وحين نرى الأخذ بخيار العزلة ووضع القيود على أشكال الاتصال مع العالم الخارجي، فإننا سنحرم أنفسنا من إيجابيات الانفتاح التي أشرنا إليها، وسيكون الوضع العقدي والخلقي بعيداً نسبياً عن التأثر بما هو خارج الحدود، لكن ستكون أخلاقنا وقيمنا

ونظمنا معرَّضة للاختناق والتحلل الذاتي بسبب البعد عن دواعي التجديد والتطوير، وهذا ما تعاني منه بعض الدول الإفريقية اليوم. **إذن لكل خيار ضرائبه التي ينبغي أن تُدْفَع عن طيب خاطر.**

٢- لا نستطيع أن نهاجم الأعداء، ونُبرز مثالبهم وسلبياتهم، ونقوم بتشويه صورتهم أمام جماهيرنا، ثم نستفيد منهم، أو نفهمهم على حقيقتهم، لأننا نحاول الجمع بين خيارين لا يمكن الجمع بينهما. إننا حين نشوّه سمعة العدو، وننظر إلى ذلك على أنه أداة لتعزيز ثقة جماهيرنا بأنفسها، فإننا نوجد حواجز نفسية تحول دون التفاعل مع فضائل العدو، ونلقي على الأعين غشاءً يحول دون رؤيتها. والخيار الصحيح هو أن نقف الموقف الذي أمرنا الله -تعالى- به حين قال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٨﴾[٦٦]. إن إنصاف العدو هو الحق الذي لا ينبغي أن نحيد عنه، وفي اتباع الحق دائماً الخير على المدى البعيد، **وإن كان ذلك قد يؤدي إلى افتتان الناس ببعض ما لدى الأعداء، كما أنه قد يجعل صفوفنا في مواجهته وكأنها هشة، فهذه هي طبائع الأشياء، حيث إننا لا نستطيع أن نحصل على كل شيء.**

٣-أمام أحدنا خيار أن يعيش بالعرض، أي يعطي لنفسه كل ما تشتهيه غير آبهٍ بالسكر والضغط و(**الكلسترول**) وغير مهتم بنصائح الأطباء، وعليه أن يتحمل عواقب ذلك مجسَّدة في أمراض خطرة تغزوه في وقت مبكر من عمره. وأمام الواحد منا خيار آخر، هو أن يعيش حياته بالطول، فيضغط على نفسه، ويحرمها من بعض مشتهياتها، وهو بذلك يأخذ بالأسباب التي تساعد على عبور مرحلة الشيخوخة بأقل قدر ممكن

٦٦ سورة المائدة: ٨.

من الأمراض بإذن الله -تعالى- ونحن نلاحظ أن الذين يبلغون التسعين والخامسة والتسعين هم في الأعم الأغلب من الذين أخذوا بهذا الخيار. **هل يستطيع المرء أن يعيش حياته بالطول والعرض؟ هذا ممكن، لكنه نادر، حيث إن على من أراد لأجهزته وأعضائه أن تعمل بكفاءة مدةً طويلةً أن يحميها ويصونها؛ ولله الأمر من قبلُ ومن بعدُ.**

٤- لا تستطيع أي جماعة أن تكون لها فتوحات سياسية كبيرة إلى جانب فتوحات روحية وأخلاقية عظيمة بسبب اختلاف طبيعة العمل الدعوي عن طبيعة العمل السياسي واختلاف متطلبات كل منهما، وحين أراد الحسين سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم التوجه إلى العراق لقتال جيوش بني أمية، قال له أحد الصحابة في إشارة ذكية إلى ما نحن بصدده: (ما كان الله ليجمع لكم بين النبوة والملك). إن تحقيق إنجازات روحية ودعوية يتطلب من الداعية الاستقامة والصدق والعفوية وإشعار المدعوين بالنزاهة والبعد عن المصالح الشخصية، وهذا يجعل الناس يرتبطون ويقتدون به، ويتفاعلون مع أخلاقه .... أما العمل السياسي، فله شأن مختلف حيث إن السياسة تظل مركزاً للموازنات والتحالفات والحلول المتوسطة ومن ثم فإن النجاح في العمل السياسي قد يتطلب أن يُظْهر السياسي بعض الأمور، ويخفي بعضها الآخر، كما يتطلب إطلاق وعود لا يمكن تحقيقها، وأموراً أخرى من هذا القبيل .... وهذا كله يشوش على الصورة الذهنية التي يرسمها الناس عادة للداعية والإمام والقدوة. ومن هنا كان الصواب والله أعلم هو أن يتفرغ للعمل السياسي أشخاص لا يمارسون العمل الدعوي، وإلا فقد لا يكون هناك ربح في الدعوة، وتحدث الخسارة في السياسة!. وفي الإطار نفسه نجد بعض

الجماعات الإسلامية قد اقتنعت بمقولة: **(لابد للحق من قوة تحميه)** فأنشأت تنظيماً مسلحاً، يعمل في الخفاء إلى جانب الجهود الدعوية المعلنة، وما درت أنها بذلك جمعت بين خيارين ليس الجمع بينهما صائباً أو مفيداً، وكانت النتيجة أن التنظيم المسلح لم يفدها في وقت الشدة، بل جرَّ عليها المتاعب، كما أنه أدى إلى انخفاض مصداقيتها لدى الحكومات ولدى الجماعات الدعوية المناظرة والمنافسة. وفي بعض البلدان كان التنظيم المسلح أشبه بخندق مزروع بالألغام إلى جوار الخط الدعوي العام، ففجّره، وأجهز عليه!.

٥- حين نريد القيام بعمل تربوي أو إنتاجي أو صناعي، فإن أمامنا دائماً خيارين: خيار التركيز على **(الكم)** وخيار التركيز على **(الكيف)** وبما أن طاقاتنا محدودة، وتجويد الكيف وتكثير الكم ليسا محدودين فإن علينا أن نغض الطرف عن أحدهما مقابل الاهتمام بالآخر، ونجد هذا واضحاً حين نقارن السيارات الكورية بالسيارات الألمانية حيث يركِّز الكوريون على **(الكم)** ويحققون الأرباح من وراء غزارة الإنتاج على حين يركِّز الألمان على **(الكيف)** ويحققون الأرباح من وراء الجودة والنوعية؛ وقل مثل هذا في التربية، حيث إن شرح الدرس لعشرين طالباً أفضل بكثير من شرحه لمئتي طالب، كما أن نتائج متابعة أم لثلاثة أطفال أفضل في الغالب من نتائج متابعتها لعشرة وذلك لأن الوقت المتوفر للأم من أجل الجلوس مع أبنائها محدود، وهي إما أن توزعه على ثلاثة أوعلى عشرة؛ ومن هنا برزت لدينا قاعدة مهمة تقول: **(تعاظم الكم يكون دائماً على حساب الكيف)** بعض الناس لا يدركون هذا المعنى ولا هذه السنة الجليلة، ولهذا فإن الرداءة هي الطابع الذي يطبع أعمالهم!.

● كيف نتعامل مع هذه السنة:

١- نحن نحتاج إلى رؤية شاملة للخيارات المتاحة، حيث لا ينبغي أن نلتقط أحد الخيارات على عجل، من غير تمحيص للخيارات الأخرى.

٢- يتصل فهم هذه السنة بما أسميه (**فقه الطرق المسدودة**) حيث إن معرفتنا بعدم إمكانية الجمع بين الخيار الفلاني والخيار الفلاني تعني أننا ندرك أن الطريق إلى الحصول على الشيء الفلاني مع الشيء الفلاني طريق مغلق لا سبيل إلى السير فيه. وهذا الفقه مع أنه تعلوه مسحة تشاؤمية وسلبية إلا أنه عظيم النفع في توفير الجهود والأعمار، لهذا أتمنى أن ينبري بعض الكتاب ذوي البصيرة النافذة إلى شرح أكبر عدد ممكن من الأمور التي لا نستطيع أن ننجزها أو نحصل عليها.

٣- حين يتحسن مستوى الرؤية لدينا، فإننا نعرف السلبيات التي تترتب على كل خيار، كما أننا نعرف إيجابياته ومنافعه، وهذا يجعلنا نصير إلى تبني الخيارات الأعظم فائدة والأقل كلفة، وإذا حاولنا الجمع بين خيارين أدركنا الثمن الذي سندفعه لذلك، وأخذنا في تلافي الآثار السلبية المترتبة عليه.

٤- لن يكون الذكاء كافياً في معرفة مشكلات الجمع بين الخيارات المتنافرة، ولابد معه من العلم والمعرفة والقراءة في الكتب المتخصصة؛ ومن الله -تعالى- الحول والطول.

●●●●

29

المكان يصنع المشاعر

هي... هكذا





المكان يصنع المشاعر

إن التاريخ لا يعيد نفسه، أما الجغرافيا فإن معطياتها ثابتة. ومن الواضح أن الله -تعالى- فطر الأشياء على تبادل التأثر والتأثير من خلال العلاقات التي تربط بينها، إلى درجة يصح معها القول: إن الشيء هِبَةُ علاقاته، وقد قال (تشرشل في إحدى ملاحظاته الدقيقة: (نحن نشكِّل مساكننا، ثم تشكِّلنا مساكنُنا). فعلاً نحن الذين نخطط منازلنا ونشيِّدها، ثم بعد ذلك نصبح أشبه بالأسرى لإيحاءات تلك المنازل وتأثيرها في أخلاقنا ومشاعرنا. الإنسان يشعر دائماً بالحاجة إلى المكان، وهو مفطور على الشعور بالحاجة إلى حيز خاص يمارس فيه خصوصياته، ويحمي من خلاله نفسه ومصالحه. نحن في مكانٍ ما نشعر بالارتياح

والاطمئنان، ونتمنى لذلك الإقامةَ فيه أطول فترة ممكنة. ونشعر في بعض الأماكن بالضيق، ويعلونا نوع من الكآبة، ولهذا فإننا نشعر بالحاجة الماسَّة إلى مغادرته في أسرع وقت ممكن، لكننا في الحالين لا نعرف لماذا يحدث ذلك. والحقيقة أن هناك الكثير من الدراسات التي تتناول تأثير المكان في الإنسان وضرورة اهتمام الإنسان بمكان سكناه حتى يشعر بالطمأنينة والارتياح. وهذه بعض الملاحظات في هذا الشأن:

١- يدل بعض الدراسات والكثير من المشاهدات على أن الناس حين يكونون في مكان واسع وأنيق ونظيف ومنظم وهادئ يتبادلون بينهم مشاعر جميلة: مشاعر مشحونة بالغبطة والامتنان والتعاطف واللطف، فترى السلام الحارّ والعناق، وتسمع الكلام اللطيف المعبر عن السرور والهناء ... وعلى العكس من هذا فإن الناس حين يكونون في مكان ضيق وقذر وحار وفوضوي ومملوء بالضجيج فإنهم يتبادلون فيما بينهم مشاعر السأم والملل والتشاؤم والضيق وعدم الاكتراث، وقد رأيت هذا، ولاحظته في العديد من المواقف، وأعتقد أن القراء الكرام قد لمسوا ذلك أيضاً. وفي هذا يقول أحد الرجال الذين أجريت تجارب عليهم: إنني أستطيع أن أتحمل كل شيء تقريباً طالما أن لدي غرفاً كبيرة وسقوفاً عالية، قد نشأت في بيت قديم، ولم أتمكن أبداً من تعويد نفسي على أي شيء مختلف.

٢- فطر الخالق -جل وعز- الناس على الاحتياج إلى مساحة مكانية يعيشون فيها، ويمارسون فيها أنشطتهم وخصوصياتهم، وفطر كثيراً من أنواع الحيوان على مثل ذلك، وقد أجرى العلماء المهتمون بسلوك الحيوان العديد من الدراسات والتجارب على بعض الحيوانات مثل الفئران والسرطانات، وتبيَّن منها أن الحيوانات حين تزدحم في مكان ما، ويصبح نصيب الواحد منها من الحيِّز أقل من الحد الأدنى المطلوب -فإنها

تتضايق إلى حد بعيد، ويتغير سلوكها في بعض جوانب حياتها، ومن ذلك - مثلاً -:

أ- حين تزداد أعداد السرطانات في مكان ما، فإنها تخفِّف من الاكتظاظ عن طريق التهام عدد وافر من أفرادها، وهي في مرحلة القواقع، وذلك من أجل إعادة التوازن بين السرطانات والمكان الذي تقيم فيه.

ب- في دراسة لـ (فئران المسك) وجِد أن الاكتظاظ الشديد أدى بها إلى أن تضعف مناعتها، وتكثر الوفيات بين أفرادها، كما وُجِد كذلك أن فئران المسك تتشارك مع الإنسان في ميلها لأن تصبح متوحشة نتيجة التوتر الناجم عن الاكتظاظ.

جـ- إن الفأر رغم قدرته الشديدة على الاحتمال لا يمكنه أن يتحمل الفوضى، ووُجِد أنه يحتاج إلى بعض الوقت كي يكون وحده، وقد تدهور تصرف الذكور الاجتماعي نتيجة الزحام، وانتشر بينها عض الذيول

٣- حين يزدحم الناس في مكان، فإن احتمال احتكاك أجسادهم ببعضها يصبح أكبر، وهذا يثير لديهم مشاعر الضيق، وأحياناً التوجس والعدوانية، كما أن الزحام يجعل الناس يشمون بقوة روائح الأجساد المزدحمة، وهذا كثيراً ما يثير النفور وعدم الارتياح. ونحن نرى كيف تتحول البيوت في الأحياء شديدة الفقر إلى بيئة طاردة بسبب ضيقها واكتظاظها بسكانها، ومن ثم فإنك تجد الشوارع مملوءة بالأطفال الصغار حيث يتعرضون للمخاطر المختلفة، ويتعلمون الكثير من الأشياء السيئة. وقد رأينا في الصفوف (الطوابير) المكتظة في انتظار شراء بعض السلع أو الحصول على بعض الخدمات -الكثيرَ من سوء الخلق والسأم، وسمعنا الكثير من التأفف والتعليقات اللاذعة، وكل ذلك بسبب إيحاءات الوضعية الصعبة لمن يقف في صف طويل، وبينه وبين الناس من خلفه ومن أمامه مسافة قصيرة جداً.

● ما الذي تعنيه هذه السنة؟

١- نحن نريد لكل مسلم أن يعيش حياة كريمة هانئة ومطمئنة، وهذا يقتضي أن يكون لدينا ثقافة عامة تؤكد على نظافة البيوت والشوارع والحدائق وأماكن العمل، وتؤكد على تنظيم البيئة على نحو يشرح الصدور، ويثير مشاعر السرور.

٢-من مسؤوليات الأمهات العمل على جعل بيوتهن بيئات جاذبة للأزواج والأبناء والبنات، وذلك من خلال الاهتمام بنظافتها وتنظيمها وتزيينها وتنسيق أثاثها، ومن خلال توفير قدر جيد من الهدوء والمراعاة. ولا ريب أن المسكن الواسع نعمة كبرى من الله -تعالى- وتوفيره من مسؤوليات الأزواج والآباء، وينبغي العمل بكل وسيلة على مساعدتهم في ذلك.

٣-الزحام على الخدمات وازدحام السيارات والناس في الشوارع والأسواق .... يثير المشاعر السلبية لدى الناس، ويدفع في اتجاه العدوانية، ولا سيما إذا صاحبه ارتفاع ملحوظ في درجات الحرارة، وعلينا جميعاً أن نتجنب أماكن الزحام قدر الإمكان، وعلى الحكومات العمل على توفير الخدمات بشكل أفضل.

●●●●

30

يحدد المجتمع السقف الحضاري للأفراد الذين يعيشون فيه.

هي... هكذا



30 يحدد المجتمع السقف الحضاري للأفراد الذين يعيشون فيه.

ما من شك في أن لكل واحد من البشر طبيعته الخاصة والفريدة، وما من شك أيضاً في أن الناس لا يتأثرون بشيء كما يتأثرون بالبيئات والمجتمعات التي يعيشون فيها، والحقيقة أن المرء يكتسب من مجتمعه عناصر جوهرية في تكوين ذاته مثل المشاعر واللغة ومعايير الخير والشر، وما هو لائق وما ليس بلائق وأمور عديدة من هذا القبيل.... لكن لابد مع هذا من القول: إن العلاقة التي تربط الفرد بمجتمعه علاقة مرنة، فقد ينشأ في الأسرة التي تعيش في حالة من النزاع والتمزق أبناء يكونون في المستقبل رجالاً عظماء، وقد ينشأ في الأسر العلمية المحترمة أبناء، ليس لديهم أي رغبة في العلم، وليس

لديهم نباهة في أي شيء. وقد ينشأ في مجتمع كسول وفوضوي أشخاص يحاسبون أنفسهم على الكلمة والدقيقة، ويعملون كما تعمل الساعة، كما أنه قد ينشأ في مجتمع متقدم ومنظم أشخاص يمثلون قمة التخلف في سلوكهم، وهذا كله يشير إلى الشذوذ الذي يؤكد القاعدة، وأي دليل أعظم على حجم ما تفعله المجتمعات بأبنائها من أن أكثر من (٩٩٪) من الذين ينشأون في بيئة مسيحية يكونون مسيحيين، وأكثر من (٩٩٪) من الذين يعيشون في بيئة بوذية يكونون بوذيين، وهكذا المسلمون واليهود والهندوس وغيرهم.... إن المكان يمتلك عبقريته الخاصة والتي يصبغ من خلالها الذين يعيشون فيه بصباغه، ويصبهم في قوالبه. وهذا شرح موجز لهذه السُّنَّة الاجتماعية العظيمة:

١- يحدد المجتمع المدى الأخلاقي والحضاري الذي تتحرك فيه طموحات الفرد وتطلعاته، وذلك من خلال تقديم النماذج التفسيرية للمبادئ والقيم التي يؤمن بها المجتمع، ونحن نعرف أن أكثر من (٩٠٪) من القيم الاجتماعية متفق عليها بين كل الشعوب والأمم، لكن الذي يشكل الفارق بينها هو المكان الذي تحتله القيمة في السُّلَّم القيمي، وأيضاً تجسيداتها التطبيقية في الحياة العملية، ولنشرح هذه النقطة بالمثال التالي: بر الوالدين ورعايتهما قيمة عالمية وتطبيقاتها لدى الشعوب تتباين تبايناً كبيراً، وهي في العالم الإسلامي حاضرة بقوة وبصورة مشرِّفة، أما في الغرب فإنها في حالة مخجلة!.

في مجتمع ما يقوم أبر الناس بوالده بالآتي:

- يقف أمامه بأدب جم.
- يصغي إليه باهتمام، ويسارع إلى تنفيذ ما يطلبه منه.
- لا يرفع صوته أمامه.

يحدد المجتمع السقف الحضاري للأفراد الذين يعيشون فيه.

- حين يتسلم مرتبه آخر الشهر يضعه بين يديه ليأخذ منه ما شاء.
- يدعو له كثيراً في الصلاة وغيرها.
- لا يكثر من الكلام في مجلسه.
- يزوره يومياً قبل الذهاب إلى عمله.

وأمور أخرى من هذا القبيل... إن سلوك هذا الولد البار يشكل السقف الذي يرسمه المجتمع في مخيلته للابن البار بأبيه، ويقوم المجتمع بطرق مختلفة بشرح ذلك للجيل الجديد، ويحفزه على الاقتداء به. في مجتمع آخر -أوربي مثلاً- يقوم أبر الناس بأبيه بالآتي:

- يتردد الابن على بيت الأب في الشهر مرة.
- إذا احتاج الأب إلى المال فإن الابن يقوم بإقراضه من دون فائدة.
- إذا مرض الأب، ودخل المستشفى، فإنه يقوم بعيادته كل ثلاثة أيام.
- يتصل على أبيه عبر الهاتف كل عشرة أيام.
- يمكن أن يقضي بعض حوائج أبيه مرة في الأسبوع.
- لا يرفع صوته أمام أبيه إلا إذا غضب.

وأمور أخرى من هذا القبيل.. الناس في ذلك المجتمع ينظرون إلى سلوك هذا الشاب بعين الاحترام ويحثّون أبناءهم على تقليده، لكن الذين يستجيبون لذلك قليلون، ويبقى السواد الأعظم من الأبناء دون ذلك المستوى، وإن كانت نظرتهم إليه هي أنه مستوى رفيع ومحترم.

٢- يحدد المجتمع السقف الحضاري لما يمكن أن يبلغه الفرد من خلال دلالته على نوعية ردود الأفعال التي عليه أن ينظمها تجاه التحديات والمشكلات التي يواجهها

في حياته اليومية؛ ومع أنني أؤكد أن لكل فرد أسلوبه في التعامل مع أحداث الحياة، إلا أن المجتمع يحدد السمات العامة لذلك، ويقوم بتحبيذ بعض أساليب المواجهة، وتزهيد الأفراد بأساليب أخرى، **وسأضرب مثالين أيضاً لتوضيح هذه المسألة: في** مجتمع زراعي ينتمي إلى بلد متقدم علمياً وصناعياً قام أحد المزارعين بزراعة نوع جديد من المحاصيل التي لا يعرفها أهل بلده، وبعد شهور من بذل الجهد والمال والأمل والانتظار تبين أن المحصول لا يناسب أرضه ولا المناخ السائد، وكانت النتيجة أن النبات الجديد ذبل واضمحل، وذهب معه الحلم الجميل... **كيف يكون حال المزارع وحال مجتمعه حيال تلك التجربة؟**

● تعلّم المزارع من مجتمعه أن تجربة أشياء جديدة تعد شيئاً جيداً.

● ينظر المزارع إلى إخفاقه على أنه كان مصدر تعليم له، فقد اكتشف أن أرضه ذات طبيعة معينة، وينبغي أن يكون ما يزرع فيها ملائماً لتلك الطبيعة.

● لم يلقَ أي لوم من أهل قريته، لأن المهم في نظرهم ليس النتائج ولكن المحاولة.

● وجد المزارع مرشداً زراعياً قريباً منه، فسأله عن سبب عدم نجاح المحصول الذي زرعه.

● هناك مكتبة ممتازة وجد فيها كتاباً يرشده إلى محاصيل جيدة تناسب الأرض والمناخ لديه.

الوضع الاقتصادي له وللمزارعين أمثاله جيد لذلك يتحمل خسارة الموسم الزراعي التي مني بها.

● لم ييأس من النجاح وسوف يكرر محاولة تجريب محاصيل جديدة.

إذا حصلت عين الحادثة مع مزارع في إحدى الدول الفقيرة والنامية، فكيف يكون

يحدد المجتمع السقف الحضاري للأفراد الذين يعيشون فيه.

رد فعله؟ وكيف تكون نظرة المجتمع إلى ذلك؟.

● ينظر إلى تجربته على أنها كانت ورطة، وتشكل خروجاً عن المألوف.

● لا يسأل عن أسباب إخفاق المحصول، ولا يثق بالمهندسين والمرشدين الزراعيين إن وجدوا.

● سينظر إليه أهل قريته على أنه رجل متهور، ويفتقر إلى الحكمة.

● سوف تتراكم عليه الديون لأن وضعه في الأساس كان هشاً،

● سوف يؤنب نفسه على ما فعل، ويضمر التوبة عن العودة إلى مثله.

● سيتحدث عنه أهل قريته طويلا على نحو سلبي، وسوف يحذّرون أي شخص من تجريب زراعة محصول جديد انطلاقاً من الخبرة السلبية لذلك المزارع.

النتيجة لهذا هي الجمود، والحرمان من التطور الزراعي الحادث في محيط أهل تلك القرية أو في المحيط العالمي.

٣- يقوم المجتمع بالتحكم بأفراده وتحديد الوضعية العامة التي يمكن أن يصيروا إليها -على سبيل الإجمال- عن طريق درجة صلابة الإرادة التي يقوم بمنحهم إياها، والحقيقة أن الناس يميلون بفطرتهم إلى الفوضى وإلى التباطؤ في الإنجاز، وإلى التراخي في مواجهة التحديات؛ والعيش في مجتمع هو الذي يحد من تلك الميول، ويرتقي بمستوى إرادات الناس وعزائمهم وإصرارهم على فعل ما هو أفضل. ومن الواضح أن المجتمع كلما كأن أكثر تحضراً، وكلما كان أفضل تنظيماً دفع بأبنائه لأن يكونوا أشد صلابة ومثابرة على العمل، كما أن سيطرة الناس فيه على أنفسهم ورغباتهم تصبح أشد وأقوى. في المجتمعات الريفية -مثلاً- تكون تكاليف المعيشة أقل منها في المدن، كما أن من طبيعة أعمال الفلاحة والزراعة أنها لا تتطلب التزاماً

يحدد المجتمع السقف الحضاري للأفراد الذين يعيشون فيه.

يومياً بالإنجاز، فالحصاد يمكن أن يتم اليوم، ويمكن أن يتم غداً، وزراعة المحاصيل يمكن أن تتم هذا الأسبوع، ويمكن أن تتم في الأسبوع القادم، وهكذا فليس هناك ما يدعو إلى الانضباط الذاتي الشديد، وهذا ينسحب على مجمل حياة الناس في القرى. أما في المدن، فإن الأمر مختلف حيث يكون التعامل مع الزمان بالدقيقة وليس باليوم أو الساعة، كما أن مستوى الرفاهية المتوفر فيها يتطلب من الناس أن يجهدوا ويكسبوا أكثر حتى يتمكنوا من الإنفاق بأريحية. العلاقات في القرى تكون غير منظَّمة وواسعة جداً، ومن ثَمَّ فإن كثيراً من الوقت يذهب سدى مع حدوث الكثير من الفوضى، وليس الأمر كذلك في المدن.

● كيف نتعامل مع هذه السنة؟

١- إذا كان تأثير المجتمع في حياتنا على هذه الدرجة من الأهمية فإن من واجبنا أن نستثمر فيه على أوسع نطاق، وذلك من خلال إشاعة الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبناء أكبر عدد ممكن من المؤسسات الخيرية واللاربحية، وإطلاق عدد كبير من المشروعات والمبادرات ذات النفع العام....

٢- سيظل في مجتمعاتنا نوع من النقص ونوع من القصور، وسيظل فيها من يركن إلى العادات والتقاليد على حساب الامتثال للعقيدة والمبدأ، ومن ثَمَّ فإن من واجب الصفوة من المسلمين والنخبة من المثقفين أن يكونوا أمام مجتمعاتهم، وليس في سياقها، إنهم لا يخضعون للسقف الحضاري الذي تحدده، وإنما يعملون على نحو مستمر على رفع ذلك السقف من أجل الارتقاء بالمعايير والنماذج التي تقدمها للأفراد.

يحدد المجتمع السقف الحضاري للأفراد الذين يعيشون فيه.

إن هذه الأسطر هي آخر ما أردت أن أخطه في هذا الكتاب، وسوف يكون هناك -بحول الله وطوله- جولات أخرى في مسألة السنن وطبائع الأشياء في المستقبل القريب. وإني لأحمد الله -عز وجل- على ما فتح به، وأعان عليه، وهو حسبي ونعم الوكيل؛ وصلى الله وسلم على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

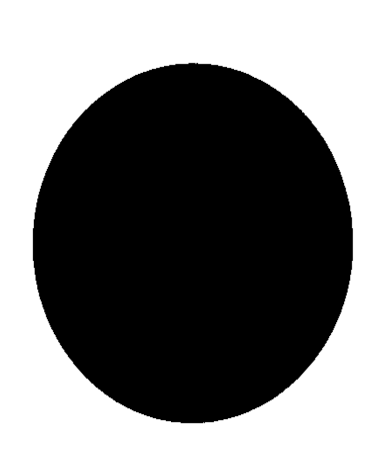
المؤلف

تم الفراغ منه

في صبيحة يوم الجمعة

الموافق للعشرين من ذي القعدة عام ١٤٢٨هـ.

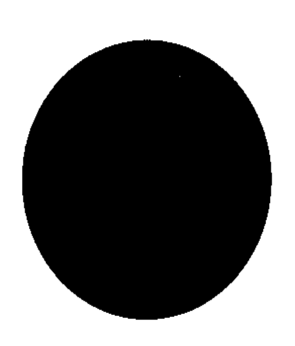
●●●●



ثبت بالأفكار والمقولات العامة

هي...
هكذا

Exclusive



ثبت بالأفكار والمقولات العامة

● العمل الجوهري للمفكر هو صناعة المفاهيم، والفكر عبارة عن مفاهيم تم إبداعها بناء على معطيات وملاحظات تنتمي إلى مجالات مختلفة.

● إن من رحمة الله -تعالى- بعباده وجود خصائص فطر عليها الأشياء، ووجود سنن ونواميس تحكم ظواهر الوجود.

● وجود السنن في هذا الكون مظهر من مظاهر العدل المطلق لله بين عباده، لأن السُّنة لا تفرق بين شخص وشخص، ولا بين أمة وأمة ولأي سبب من الأسباب.

● تميل طبيعة العلاقات التي تربط الإنسان بالزمان والمكان إلى الخفاء والتعقيد بسبب ما يتمتع به الإنسان من الإرادة الحرة.

● إن حديثنا عن السنن والطبائع في الحقل الإنساني غير دقيق ولا جازم، وهو أقرب إلى أن يكون ملاحظات ومقاربات ذات تحليل شخصي.

● إن الفكرة الجديدة تستحق الاحتفال والابتهاج ولو أثارت شيئاً من الجدل؛ لأنها قد تنطوي على حل لمشكلات مستعصية.

● العقلية المنهجية تبدي مهارة في تحويل المعلومات والإشارات المبعثرة إلى أصول ونماذج عبر إدراك الروابط الدقيقة التي تربط بينها وعبر التحليل المنطقي.

● إننا حين ننقد شيئاً نحرّض الأذهان على رؤية شيء لم تره من قبل، وعلى الاستدراك على رؤية غير مكتملة.

● المقولات المنهجية المحكمة تمدنا بمفاهيم لا تُقدَّر بثمن.

● الملاحظات الذكية على الظواهر العامة تشكل مفاتيح للفهم والاستبصار.

● العقول الكبيرة تلتقط الإشارات الذكية التي يطلقها بعض المفكرين، ثم تقوم بالتأمل فيها، والعمل على إيجاد المزيد من التطبيقات لها.

● إن الواحد منا لا يستطيع الحصول على كل شيء، فهناك دائماً حدود لما يمكن أن نستحوذ عليه.

● شدة ميل النفوس إلى المال، تجعلنا نتحول عن التعامل معه بوصفه وسيلة للتملك إلى التعامل معه بوصفه هدفاً مستقلاً!.

● مع أن كل الناس مفطورون على حب المال إلا أن من الصحيح أيضاً أن شدة الميل للحصول عليه تختلف بين شخص وآخر.

● سيظل المعروض من المال أقل من المطلوب، لذلك فإن التسابق على الاستحواذ على أكبر قدر منه سيظل مصدراً للنزاع والتوتر.

● كلما انخفض المستوى العلمي لدى شخص من الأشخاص فإن إقباله على الاستهلاك يصبح أشد.

● حين نفقد توازننا في إنفاق المال، فإن من المتوقع أن يصبح لدينا خلل في طرق اكتسابه.

● إن كل واحد من الناس يجد في نفسه درجة من النزوع إلى الالتزام بمعتقداته وقيمه، وهذا هو الذي يُبقي على الحد الأدنى من إنسانية الإنسان.

● لا يستطيع أحد تحقيق هذه المعادلة: نيل أقصى المرغوبات مع الحفاظ على النقاء الكامل للمبادئ والمعتقدات.

● على الحكومات أن توفر بيئة يكون فيها كسب المال بطرق غير مشروعة في غاية الصعوبة، حتى تساعد الناس على الاستقامة المالية.

● للنضال من أجل البقاء على الطريق الصحيح لذة روحية أعظم بكثير من اللذة التي نجدها عند الظفر بواحد من مرغوباتنا.

● استهلاك الإنسان للأفكار لا يدل على نحو مستمر على أنها فقدت صلاحيتها، لكنه يدل على تشبعه بها، كما يتشبع الإسفنج بالماء.

● السأم من الأشياء المعادة والمكرورة، يشكل مظهراً من مظاهر رحمة الله بالعباد لأنه يحفزهم على التجديد والتطوير.

● علينا أن نعامل الأفكار والنظم كما نعامل (درجات السلم) حيث إننا نرتقي بها نحو الأعلى لكننا لا نحملها معنا.

● ما هو سائد من أفكار يدفعنا إلى الأمام مسافة محدودة، وعلينا أن نبحث عن أفكار جديدة إذا أردنا أن نحصل على انطلاقات واندفاعات أخرى.

● استهلاك الناس للأفكار يشكل مأزقاً حقيقياً لكل أولئك الذين يستهدفون التأثير في غيرهم سواء أكانوا دعاة أو معلمين... وعليهم أن يقدموا دائماً شيئاً يتجاوز خبرات الناس ومألوفاتهم.

● ليس الطفل أشبه بالعجينة التي تستجيب لأي تشكيل، لأن له فطرته وطبيعته الخاصة.

● طبيعة الإنسان مؤجلة أو غير منجزة بسبب قابليته الكبيرة للتأثر بالتربية والتثقيف والتعليم.

● كلما ارتقت البشرية في سلم الحضارة زادت المدة المطلوبة لتهيئة الأبناء لخوض غمار الحياة.

● قوة الحق وعظمته هي التي تجعل أعداءه والمعرضين عنه يتمسحون به، ويحاولون إقناع أنفسهم أنهم على طرف منه.

● إن المبطل يخشى مقابلة الذين ظلمهم، ووضْعَ عينه في عيونهم ما لم يكن على درجة كبيرة من الوقاحة.

● حتى يستطيع المبطل استخدام القوة لملء الفجوة التي تفصله عن الحق، فإنه يحتاج إلى (الغموض) كما يفعل الذين يمارسون الصيد في الماء العكر.

● حين تتوفر القوة الضاربة لدى أي جهة، فإنها تغريها بتجاوز الحق والمشروع، وطالما استطاعت القوة العظيمة طمس أبصار أصحابها وبصائرهم.

● كلما زاد تفكير المرء في حل مشكلاته عن طريق القوة، فإن عليه أن يخشى على نفسه من أن يكون في عداد الظلمة والجبارين.

● البنية النفسية للإنسان هشة جداً حيث تستخفه كلمة الثناء، وتفتنه نظرة، وتقضّ مضجعه كلمة...

● من الصعب على المرء أن يؤذي مشاعر الآخرين دون أن يؤذي نفسه.

● الكلمات الجارحة والقاسية أشبه بالريح المنتنة، يشمها كل من في المكان.

● المسرفون في النقد وتتبع العورات، يصنعون أحزان أنفسهم ويجلبون الهموم لقلوبهم دون مسوغ مقبول، إنهم بارعون فعلاً في الاستدراك على كل ما هو جميل!.

● من شأن الإنسان عدم الميل إلى رؤية الأشياء على ما هي عليه، ولا الاعتراف بالواقع إذا كان يقف في طريق طموحاته.

● لا يستطيع أي كاتب أن يكتب لكل الناس، حيث إنه إذا ربح الصفوة خسر العامة، وإذا ربح العامة خسر الصفوة.

● تتمثل أناقة الروح في تلك المشاعر الجميلة والدافئة التي تغمرنا حين نتجاوز في أعمالنا مرحلة الواجب إلى مرحلة التطوع والتبرع.

● رفاهية الجسد تقوم على المزيد من الأخذ والتمتع، أما رفاهية الروح، فإنها تقوم على المزيد من العطاء المجاني والطوعي.

● رفاهية الجسد تزيد من حجم الندرة في الحياة العامة، على حين أن رفاهية الروح تزيد في الفائض الاجتماعي، وشتان ما بينهما!.

● لا يستطيع المرء على المستوى الأخلاقي والسلوكي أن يكون شيئاً غير ما يهجس به في خلواته.

● الارتقاء بالاهتمامات والهواجس يتطلب منا أن نبلورها على نحو جيد من خلال تحديدها والتحدث عنها أمام الأهل والأصدقاء.

● على مدار التاريخ كان الإنسان مرتبكاً في إدارة القوة التي بين يديه، وحالات إخفاقه في هذا المجال أكثر من حالات نجاحه.

● إن القوة تسبب الفساد، وإن القوة المطلقة قابلة للفساد قطعاً.

● إن الذين يخالفوننا، ويعارضوننا في بعض المواقف يقومون بعمل جيد جداً؛ لأنهم بذلك يساعدوننا على التوقف عن التمادي في الخطأ والاسترسال في تمجيد الذات.

● الحياة الاجتماعية الجيدة تحتاج إلى نوع من الهندسة التي تجعل الكفاح من أجل الحياة الكريمة مطلباً مستمراً.

● حين يكون الوصول إلى الرغبات والمشتهيات سهلاً، فإن من الممكن انتشار التدهور الخلقي على نحو مريع!.

● التقدم الخلقي والاجتماعي يكون ثمرة لذلك التوازن الدقيق والخفي بين ما نأخذه من الحياة وبين ما نقدمه إليها.

● الجهد الذي نبذله في تأمين احتياجاتنا يوفر لنا نوعاً من الحماية ضد التآكل الداخلي.

● يمكن للرخاء المادي الذي لم يأت عن طريق الجدية والعمل المبدع أن يتحول مع الأيام إلى مصدر للتخلف الحضاري وانحطاط المدنية.

● الإنسان جهول، وجهله يعود إلى أنه لا يملك المقدرة العقلية ولا الأدوات المطلوبة لمعرفة ما يجري من حوله على نحو جيد.

● جدارة الإنسان بالجهل تزيد، وذلك لأن ما لا يعرفه ينمو على نحو مطرد كلما ازداد تراكم المعرفة، وكثر المشتغلون بها.

● علينا أن لا ننظر إلى عقل الجاهل على أنه شيء فارغ، إنه مملوء بالتصورات المنحرفة وبالخرافات والقواعد والمعلومات غير المدقّقة ولا المختَبرة.

● إن تاريخ العلم هو تاريخ الصراع بين الأوهام والخرافات القديمة المعشّشة في الرؤوس وبين الأفكار والمعلومات والحقائق الممحّصة.

● لدى بعض الناس من الجهل بأنه جاهل ما لا ينفع في كسر حدته سوى هزة عنيفة تشبه العمل الجراحي الكبير!.

● لا ينظر العقل إلى الأشياء بعيون مجردة، وإنما عبر غشاء من الثقافة التي غُذّي بها.

● المشاعر صماء عمياء، فهي تتولد داخل النفس بعيداً عن المعطيات الصحيحة والموازين الدقيقة.

● إن العواطف تشتد وتثور، وتؤثر في سلوك صاحبها كلما كانت ثقافته ضحلة ومحدودة.

● لا يدرك الجاهل في أحيان كثيرة نصاب التوازن والاعتدال، فيمضي خلف عواطفه المتقلبة من حيث لا يشعر.

● ستظل العواطف على صلة بالتطرف والتقلب، وستظل كذلك صدى للأفكار والرؤى والتقييمات التي يحملها الناس في رؤوسهم.

● إن الهمَّ الذي يسيطر علينا في مرحلة الشيخوخة هو نفس الهمّ الذي يسيطر على الحيوان في ساعات الخطر المحدق، إنه الحفاظ على الوجود إلى أن يتلاشى الإعصار؛ لكن إعصار الشيخوخة لا يقبل التلاشي!.

● مع التقدم في السن يصاب الإنسان بما يمكن أن نسميه (السأم الوجودي) السأم من أعباء الحياة وأحداثها المكررة....

● لسان حال الشيوخ يقول: كنا نشتهي الشيء، ولا نجده، فلما وجدناه فقدنا الشهية!.

● حين يكبر الإنسان تصبح المحاكمة العقلية أفضل، ومدى الرؤية لديه يتسع، لكنه يفقد الطاقة الروحية والجسمية على استقصاء الجديد من الأفكار والمعطيات.

● نحن عبيد الله -تعالى- وعلى العبد أن يستمر في خدمة سيده وعلى أفضل وجه ممكن إلى النَفَس الأخير....

● المهم دائماً أن ننفخ على النار الكامنة في نفوسنا، وأن نحارب اليأس والتشاؤم بكل الوسائل المتاحة.

● قد ينفع الله الأمة برجل طاعن في السن، ويُجري على يديه من الخير أضعاف ما يجريه على أيدي العشرات من الشباب الأشداء.

● كل إنجازاتنا، وكل موقف من مواقف التأبي والممانعة يحتاج إلى شيئين: القدرة والإرادة.

● كثيراً ما نخلط بين التمني والإرادة، والدليل على وجود الإرادة هو الأخذ بالأسباب والعمل الحثيث من أجل المستقبل.

● في مواقف كثيرة يستحي الناس من قول (لا نريد) فيقولون: (لا نستطيع)!.

● من سنن الله -تعالى- في الخلق أن احتياج النجاح في الأعمال إلى الإرادة الصلبة أكبر من احتياجه إلى القدرة الفائقة.

● إدراكنا لنقص الإمكانات والقدرات أسهل من إدراكنا لضعف العزائم والإرادات.

● إن قدراتنا تتحدى فعلاً إراداتنا، كما يتحدى القماشُ الخياطَ كي يجعل منه ثوباً جميلاً، وكما تتحدى الأرضُ الخصبة الفلاح كي يزرعها ويستخرج خيراتها.

● في أوضاع التخلف تكون قوة الإرادة سمة فردية، وتكون إرادات معظم الناس ما بين المتوسطة والضعيفة.

● ضعف الثقة بالنفس سبب رئيس من أسباب ضعف الإرادة لأنه يدفع بصاحبه في اتجاه العاجزين والباحثين عن مكان في المؤخرة.

● التعب والإنهاك الشديد يُضعف إرادتنا، كما أنه يجعل أجسامنا أقل قدرة على مقاومة الأمراض.

● إذا كانت تقوية الإرادة تحتاج إلى إرادة، فهل يعني هذا دوران الناس في حلقة مفرغة؟.

● فطر الله -تعالى- الخلائق على القابلية للخير والشر، وجَعَل كل شؤون الحياة تمضي على أساس التدافع بين الخير والشر.

● إن جزءاً من تمدن الإنسان يقوم على الخير الكامن في احترام حقوق الآخرين وكبح النفس عن بعض الشرور.

● في الحضارة فوائض في السلوك والتعامل، يصعب تفسيرها بالمصالح والمنافع الشخصية.

● حين نعتقد أن فلاناً هو كتلة من الشر، فإننا نحرم أنفسنا من الاستفادة منه وتعلم ما لديه؛ وهذا هو جزاء المعتقدات الخاطئة.

● النور الذي يكمن في قلوبنا، أو ما نسميه (الضمير) له قدرة محدودة على التحفيز والحض وعلى الردع والزجر، وينبغي أن لا نرجو منه أكثر مما يستطيع، أو نحمله أكثر مما يطيق.

● العمل الخيري هو عبارة عن عمل استدراكي على قصور النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولن يستطيع معالجة المشكلات التي تفرزها على نحو كامل.

● الاعتدال والتوازن يساعدان الناس مساعدة كبيرة على عدم تحميل الأشياء فوق طاقتها.

● الناس يندفعون وراء تحقيق أقصى قدر من مصالحهم بأقل قدر ممكن من التكاليف،

وهذا يسبِّب لهم الكثير من الصراع والتصادم المكشوف والخفي.

● شدة الحاجة مع شدة الجهل تُؤهل الإنسان لأن يُستغلّ أسوأ استغلال.

● بعض الناس يستخدمون التخويف وسيلة للابتزاز، ولا سبيل إلى مقاومة ذلك سوى المعرفة الجيدة.

● بين ثقافة الروح والمعنى وبين ثقافة الجسد والسلعة صراع على الوجود.

● ثقافة الروح تتصل بالرحمة والعطاء، أما ثقافة السلعة، فإنها تتصل بمعاني القوة والاستحواذ.

● في الأحياء الفقيرة، تقل الأشياء، وينشط تبادل العواطف والمشاعر وأشكال من التعاون على مواجهة ضغوط الحياة.

● تتراجع ثقافة الروح على نحو لم يسبق له مثيل بسبب أن العولمة تروج للسلعة، وتفتح وعي الناس على اللهو والمتعة، ولا تهتم بنشر أي شيء هو من قبيل القيم والمبادئ النبيلة!.

● لا شيء يستسلم للفناء بسهولة، حيث إن الله -تعالى- فطر الأشياء على الممانعة من أجل الاستمرار في الوجود.

● تحرض ثقافة الروح المجتمع على حمايتها من خلال جعلها نفسها جزءاً من ثقافة الهوية، فيصبح الدفاع عنها دفاعاً عن الوجود.

● الطموح غير المحدود للإنسان يجعله يتمنى الحصول على كل الخيارات والجمع بين كل المتناقضات؛ وهذا مخالف لسنن الله في الخلق.

● من سنن الله -تعالى- في الخلق أن الجماعة حين تكبر تأخذ في الانقسام، فإذا أصرت على التوحد، صارت وحدتها شكلية، أو كثرت فيها المدارس والاجتهادات.

● تتصل الحرية بالحداثة واللذة والتجريب والعشوائية، أما الاستبداد فإنه يتصل بالانسجام والاتساق والتزام الحدود بشكل صارم.

● يخاف الناس من الانقسام، ولهذا فإنهم يميلون إلى التقليد بوصفه الأداة التي تجمع أعداداً كبيرة من البشر تحت لواء واحد.

● لا نستطيع أن نجتهد دون أن نختلف، كما أننا لا نستطيع أن ننمي لدى الناس الشعورَ بالحرية والكرامة دون أن نواجه مخاطر التشرذم.

● كلما تعلمنا أكثر، ومارسنا التربية بطريقة أفضل كانت مخاطر الحرية أقل.

● حين تهرم المدنيَّة الإسلامية، وتكفُّ عن الإبداع فإننا لا نستطيع أن نحميها من سيطرة المدنيات الأخرى عليها.

● المعادلة الصحيحة التي تحكم علاقتنا بالغرب هي أن ضعفنا هو السبب في التآمر علينا، وليس التآمر علينا هو السبب في انحطاطنا وضعفنا.

● في عالم تنازع البقاء -والذي هو عالمنا- يكون هناك دائماً آكل ومأكول وغالب ومغلوب.

● لا يملك العدو -في العادة- الأدوات التي تمكّنه من أن يفعل بنا أسوأ مما نفعله بأنفسنا.

● الأعداء يطرقون الأبواب بشدة، لكنهم لا يستطيعون الدخول علينا إلا إذا فتحنا لهم أبوابنا من الداخل.

● معرفة الخيارات المتاحة وفهم كيفية التعامل معها، تحتاج إلى درجة عالية من العلم المركّز والتخصص العميق، وهذا ما لا يتوفر لدى كثير من الناس.

● الانفتاح على ما لدى الآخرين، يساعد في نقل الخبرات وتوطين التقنية، لكنه سيظل يشكل نوعاً من الخطر على الهوية ونقاء العقائد والمفاهيم.

● لا تستطيع أن تشوه سمعة العدو، وتُبرز مثالبه أمام الجماهير، ثم تفهمه بشكل جيد، أو تستفيد منه على نحو فعال.

● من الصعب على أي جماعة أن تكون لها فتوحات سياسية كبيرة، وفتوحات روحية وأخلاقية عظيمة بسبب اختلاف طبيعة العمل السياسي عن طبيعة العمل الدعوي.

● التاريخ لا يعيد نفسه، أما الجغرافيا فثابتة.

● نحن نشكّل مساكننا، ثم تأخذ مساكننا في تشكيل أذواقنا ومشاعرنا.

● تتشارك فئران المسك مع الإنسان في الميل لأن تصبح متوحشة نتيجة التوتر الناجم عن الاكتظاظ.

● تتحول البيوت الضيقة في الأحياء الفقيرة إلى بيئات طاردة للأطفال، لتتلقفهم الشوارع، وليتعلموا فيها الكثير من الأمور السيئة.

● حين يقرأ الإنسان في علم لا يعرف تاريخه يشعر بمشاعر قريبة من مشاعر الذي يتحرك في غرفة مظلمة.

● شيء مؤسف أن نرى مئات الكتب في العلم الواحد والتي تعرض معلومات مكرورة دون أن تجد أكثر من كتابين أو ثلاثة في تاريخه!.

● إذا كنت تتلقى باستمرار الأخبار الطيبة عن أوضاع مؤسستك، فاعلم أن هناك بعض الأخبار السيئة التي تم حجبها لسبب من الأسباب.

● حتى نحاول فهم الخلفية التاريخية للواقع المعيش، فإن علينا أن ندرك أننا إذ نقوم بذلك نمارس عمليات اجتهادية معقدة ومنَ ثمَّ فإن ما نتوصل إليه يظلّ قابلاً للجدل والتساؤل.

● مضت سنة الله -تعالى- في خلقه بجعل الحيوية والنمو والقوة مرتبطة باتصال الأشياء بتيار الحياة العام.

● من يسكن المدن الكبرى يذق طعم الرفاهية، ويصبح اهتمامه بالتفاصيل الصغيرة أكبر.

● في داخل كل واحد منا جرس يدق في الكثير من الأوقات، وهو يقوى، ويصبح أوضح كلما أصغينا إليه، واستجبنا لمبادراته وتحذيراته.

● نحن في حاجة إلى أن نكتشف المرأة المسلمة من جديد، وحين نفعل ذلك، فإننا سندرك أن الخسارة التي تكبدتها الأمة بسبب عزل المرأة عن تيار الحياة العام كانت فادحة!.

● حين تهمِّش فئةً أو طبقةً من غير سبب موضوعي أو عملي، فإنك تدفع بها في طريق الاضمحلال، وبذلك يخسرها مجتمعها.

● من طبيعة الأقليات المهمشة أن تتخذ من خصوصياتها أرضية مشتركة من أجل حماية نفسها، ومناصبة العداء للمجتمع الذي قام بعزلها وتهميشها.

● لا شك في أن للعيش في بؤرة الأحداث مشكلاته وابتلاءاته، كما أن للعيش على هامش الحياة كذلك مشكلاته وابتلاءاته.

● في ظل العولمة يصبح (العجز) وقلة الإمكانات من أكبر مصادر التهميش.

● إن العمل في ظل الطبيعة الخاصة للمجال الذي نتحرك فيه يشكل مصدراً من مصادر الابتلاء.

● من الواضح أننا لا نتمكن من فهم طبيعة أي مجال إلا إذا خضنا غماره، وانخرطنا في البحث عن فرصه، وواجهنا عقباته ومشكلاته.

● إن الرغبة الجامحة في التأثير في الناس تدفع على نحو خفي في اتجاه المبالغة والتقول وسوق الغرائب والعجائب.

● كثيراً ما يُظهر المفكر نوعاً من الوثوقية الزائدة، وذلك لأن من طبيعة العمل في إنتاج المفاهيم أن يمنح صاحبه شيئاً من الزهو والاعتداد بالنفس.

● حين يندمج المفكر في البنية الثقافية السائدة، فإنه يفقد دوره الريادي في تجديد الثقافة وإبداع المفاهيم الجديدة.

● بعض المفكرين يكثرون من الجدل والدخول في نزاعات فكرية وثقافية على نحو مستمر، وهذا يستهلك الطاقة الروحية لديهم.

● إن الناس لن يرضوا تمام الرضا عن إنجازات حكوماتهم؛ والسبب هو الإنجازات نفسها.

● الحكومات المشروعة تنفق من مشروعيتها في أوقات الشدة، ومن إنجازاتها في أوقات الرخاء، والحكومة غير المشروعة تنفق من إنجازاتها أوقات الرخاء، وتلجأ إلى القوة وقول غير الحقيقة في أوقات الأزمات.

● الشرعية والإنجاز هما الجناحان اللذان لا تستطيع أي حكومة أن تستمر في التحليق من غيرهما.

● إن الرغبة الشديدة للناس في أن يحققوا أعلى الأرباح، تضعف توازنهم الخلقي، وتجعل مناعتهم تجاه تجاوز الحقيقة واهية!.

● يعرف الناس أنفسهم ويعرِّفون بها من خلال مقارنة أوضاعهم بأوضاع غيرهم من النظراء، وهم بذلك يشبهون (الأرقام) إذ يعرَّف الواحد منها بنفسه من خلال تموضعه بين رقمين.

● كثير من وعينا بالآخر متوقف على وعي الآخر بنفسه ومدى قدرته على تقديم ذاته إلينا بصورة واضحة.

● وعينا بذاتنا سيظل قاصراً ونسبياً ما دمنا نحصل على كثير منه عن طريق وعينا بما لدى الآخرين، والذي سيظل أيضاً قاصراً ونسبياً.

● حتى يكون الآخر مصدراً لتحسين وعينا بأنفسنا فإن علينا أن نحاول رويته على ما هو عليه من غير تضخيم ولا تقزيم.

● لدى الآخر - والذي قد يكون عدواً وخطيراً - شيء يمكن أن نستفيده منه، وهذا هو المعنى العميق للاعتراف به.

● كان سلفنا موضوعيين جداً في موقفهم من الآخر حين كانوا يقاتلون فارس والروم وينقلون عنهم في الوقت نفسه بعض الخبرات والنظم الحضارية.

● الشعور بالخطر من الآخر يُلهب نار الخصوصية لدينا، ويعزّز الإحساس بالهوية بوصفها المجنّ الذي نختبئ وراءه في الحالات الحرجة.

● ينبغي أن نتخذ ما يقوله الآخر عن نفسه أساساً للوعي به والتعرف عليه.

● سنستفيد كثيراً إذا عرفنا كيف يعالج الغرب مشكلاته، لأن العولمة تعمّم المعرفة والتقنية، وتعمم المشكلات أيضاً.

● أفضل مساعدة نقدمها للآخرين على طريق تعرفهم علينا هو أن تتجلى مبادئنا وقيمنا في سلوكنا ومواقفنا وعلاقاتنا.

● هناك علاقة طردية أو شبه طردية بين ضخامة الشيء وشدة الحذر، فكلما كان الشيء أضخم ارتفعت درجة حذره.

● على مستوى العمل الإسلامي نلاحظ أن التطرف والغلو والاندفاع الأحمق يكون في الغالب من نصيب الجماعات والمجموعات الصغيرة.

● تفتيت الجماعات الكبيرة إلى مجموعات صغيرة منافٍ للحكمة لأنه يدفع بها في طريق الغلو.

● يخشى أرباب الأسر الكبيرة كثيراً على مستقبل أبنائهم، وهذا يجعلهم ينفقون -في الغالب- بحذر شديد في وجوه أعمال الخير والبر.

● يكون الاستثمار في الشركات الكبرى أكثر أمناً لأنها تخشى من الدخول في مجازفات تُلحِق الضرر بمئات الألوف من المساهمين.

● لم يفطر الله -تعالى- الإنسان على الارتياح للتعامل مع الأشياء الكبيرة، ولهذا فإن العملقة لا تُعدُّ شيئاً جيداً في الأعم الأغلب.

● ندفع ثمن تراكم الكم إلى حدود مبالغ فيها من رصيد الجودة والنوعية، حيث لا يكون أحدهما إلا على حساب الآخر.

● حين يكون هناك اضطراب أمني واسع، فإن الازدهار العمراني يكون شاقاً، ولأنه شاق فهو محدود.

● كل نوع من أنواع الطاعة موصول بشكل من أشكال النفع، وكل شكل من أشكال المعصية موصول بشكل من أشكال الضرر.

● العصاة والفسقة والمجرمون هم في الحقيقة أكبر أعداء الازدهار الحقيقي في الرؤية الإسلامية.

● لا أمن من غير استقامة جيدة في النظام الإداري ونزاهة عالية في القضاء.

● إن كل خرق في الثوب يقلل من كفاءته في الستر والتجمل، وإن كل خرق في النظم والقوانين السارية، يذهب بشيء من هيبتها ومصداقيتها.

● يكون الاستقرار سلبيا حين تفرضه القوة، ويُخفِي في داخله الظلم والقهر والبطالة والفساد.

● لا يشعر المسلم بالأمان والسلام الداخلي إلا من خلال صلته بالله -تعالى- وشعوره بأنه ماض في الطريق القويم.

● إن الازدهار ليس شيئا نتفكه به لكنه الثمرة العظيمة التي علينا أن نقطفها حتى لا نمضي في طريق التدهور والانحطاط.

● يمتلك المكان عبقريته الخاصة، ومن خلالها يصبغ الذين يعيشون فيه بصباغه، ويصبهم في قوالبه.

● يقوم المجتمع بتحديد المدى الأخلاقي والحضاري الذي تتحرك فيه طموحات الفرد وتطلعاته.

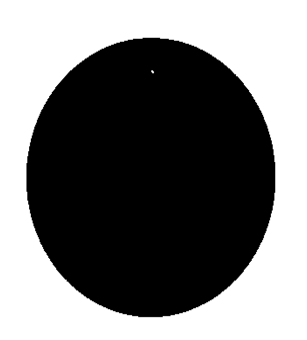
● مع أن لكل فرد أسلوبه في التعامل مع الأحداث، إلا أن من الثابت أن المجتمع يحدد الإطار العام الذي ينظم فيه أفراده ردود أفعالهم تجاه المشكلات التي يواجهونها.

● كلما كان المجتمع أفضل تنظيماً وأكثر تحضراً كان أقدر على تحفيز أبنائه على المثابرة في العمل والصمود في وجه الصعوبات.

● من واجب الصفوة أن تكون في مقدمة مجتمعاتها، وليس في سياقها، فهم لا يخضعون للسقف الحضاري السائد،وإنما يحاولون رفعه باستمرار.

●●●●





مراجع مختارة

● البعد الخفيّ - تأليف إدوارد تي. هول، ترجمة: لميس فؤاد اليحيى، عمّان - الأهلية للنشر والتوزيع ط (أولى) عام ٢٠٠٧م.

● حصاد السنين -تأليف د. زكي نجيب محمود، القاهرة -دار الشروق- الطبعة الثالثة عام ٢٠٠٥م.

● العيش في الزمان الصعب -تأليف د. عبد الكريم بكار، دمشق دار القلم الطبعة الأولى، عام ٢٠٠٠م.

●فكرة الثقافة، تأليف تيري إيجلتون، ترجمة ثائر ديب، سورية، دار الحوار، عام ٢٠٠٠م.

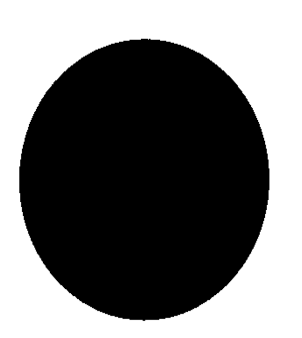
● ماذا علمتني الحياة، تأليف د. جلال أمين، القاهرة - دار الشروق، ط (أولى) عام ١٤٢٨هـ.

● مدخل إلى التنمية المتكاملة، تأليف د. عبد الكريم بكار، دمشق - دار القلم، الطبعة الثالثة عام ١٤٢٦هـ.

● المفردات في غريب القرآن الكريم، تأليف الراغب الأصفهاني، لبنان، دار المعرفة.

● نقد السياسة، تأليف د. برهان غليون، بيروت - المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية عام ١٩٩٣م.

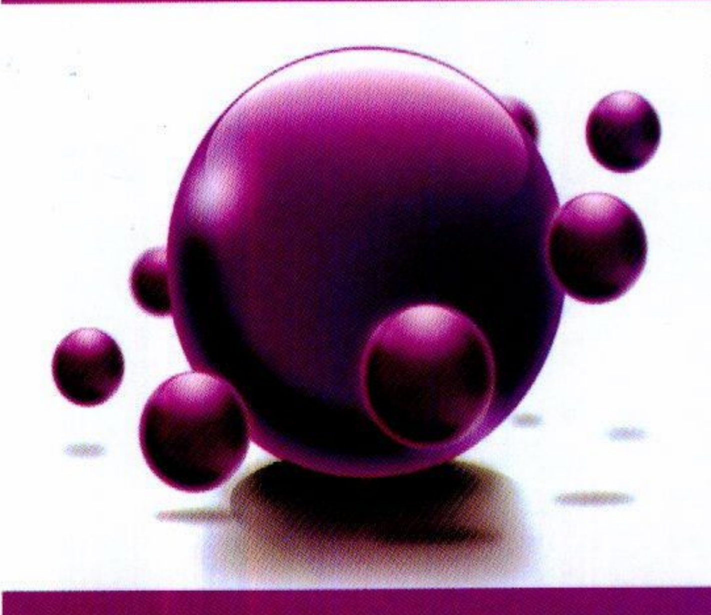
رقم الإيداع
٢٤٢٢ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولي I.S.B.N
977 - 342 - 697 - 1



الفهرس



254 | هي... هكذا



هي.. هكذا

يسألني كثير من الشباب عن الكتب التي يمكن أن يقرؤوها كي يفكروا بطريقة صحيحة، ظانين أن الفكر علم مثل كل العلوم، وأن المفكر مثل العالم الذي قرأ في تخصص من التخصصات عدداً كبيراً من الكتب. والحقيقة مخالفة لهذا الظن، فالعالم بالفقه أو بالتاريخ أو بالكيمياء .... يطلع على ما كتبه السابقون في هذه العلوم وأشباهها، وربما اجتهد في إطار العلم الذي يهتم به، وربما جدّد فيه، وأضاف إليه إضافات جيدة، وهو في كل هذا يمضي في طريق مرسوم واضح الملامح إلى حد بعيد، حيث الأبواب والفصول معروفة مسبقاً لدى المختصين، إذ إن لكل علم موضوعاته وقضاياه الخاصة التي يعالجها العارفون به. أما الفكر فله شأن آخر. عليّ قبل كل شيء أن أفرّق بين (التفكير) بوصفه عمليات ذهنية وشعورية وبين (الفكر) بوصفه منهجاً ورؤية وطريقة في فهم الوجود والتعامل مع مظاهره وأحداثه

الناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية

هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٤٠٥٤٦٤٢

فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢+)

الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣+)

www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com

ISBN: 977-342-698-X







www.ibtesama.com